الباب الاول

في

الاقليم والسكان

تمهيد

ان هذا الباب يتناول وصف الحالة الاقليمية في بلاد الحجاز، وطبيعة مناطقها من حيث الطقس والماء والجدب والخصوبة، ويتناول كذلك وصف السكان وأجناسهم ولغاتهم — أصليين وأجانب — ومساكنهم ومعايشهم، وأطعمتهم وأشربتهم، ولهوهم وأسلحتهم، وما كانوا يقومون به من أعمال تجارية وصناعية وزراعية وملاحية وصيد ورعي وتربية ماشية الخ ...

ويحتوي الفصول الآتية :

الفصل الأول : الحجاز وأهله

الفصل الثاني : الحركة الاقتصادية والمعايش

الفصل الثالث : الجاليات الاجنبية في الحجاز

الفصل الأول

الحجاز والقرآن

أقليم الحجاز في القرآن — منطقة مكة وجدبها — شدة حرارتها — شح مياهها — مناطق خصبة — المنطقة الساحلية — دلالة جفاوة القرآن بالبحر — تعليق على بعض الروايات — المدن الحجازية — مكة — يثرب — الطائف — مكة أم القرى — أسباب عظمة مكة الرئيسية — مدن الحجاز الثانوية وقراها — غنى مكة واثره — قدسية مكة — خطورة يثرب ومظاهرها — خطورة الطائف — تنوع — سكان المدن — سكان المدن في طور الكيان القبلي — البادية والبدو — الجنس العربي في القرآن — بحث في شمول الجنسية العربية — بحث في أصل سكان بيئة النبي (ص) من الوجهة القرآنية — استدلالات قرآنية في صدد كون لغة القرآن هي لغة أهل الحجاز اولاً ولغة سائر العرب ثانياً — تفنيدات — استدراكات .

١ اقليم

— ١ —

قد يكون اقليم الحجاز من الوجهة الطبيعية معروفاً بالبداهة والواقع القائم المستمر والمشاهد ؛ غير أننا لم نر بأساً من استلهام القرآن في وصفه لتكون سلسلة الكلام متصلة دون ثغرات ؛ هذا عدا ما في الوصف

القرآني من حيوية وقوة وخاصة في صدد وصف المناطق الخصبة والساحلية فنقول انه في القرآن آيات عديدة تتضمن اوصافاً متصلة بالحالة الاقليمية الطبيعية ؛ وجه الخطاب فيها الى مخاطبين قريبين ، وفيها ما يخصص بعض النواحي تخصيصاً ، مما يصح القول معه انها مصروفة الى القطر الحجازي وأقليمه .

وبحسب هذه الأوصاف يمكن ان يقال ان القرآن قد قرر أن في القطر الحجازي مناطق مختلفة الحالات من الناحية الاقليمية والطبيعية .

فهناك منطقة جدباء ، شديدة الحرارة ؛ شحيحة المياه ، محاطة بالجبال يعيش أهلها على ما يجلب اليها من الرزق جلباً من الخارج ، وهي منطقة « مكة » او بتدقيق اكثر منها منطقة مكة .

ففي سورة ابراهيم آيات فيها حكاية لدعوات ابراهيم (ص) ، وفي هذه الآيات وصفت منطقة البيت الحرام — وهي منطقة الكعبة او مكة — بكونها وادياً غير ذي زرع ، وحكيت دعوة ابراهيم (ص) بأن يرزق الله أهله من الثمرات ، ويجعل افئدة الناس تهوي اليهم :

« ربنا إني أسكنتُ من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرّم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدةً من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ... ٣٧ ابراهيم

وفي سورة القصص آية فيها رد على أهل مكة ، وفيها أشارة الى ان الله قد جعل حرمهم أمناً يجبى اليه ثمرات كل شيء ، وهذا يعني ان رزقه يجلب اليه من الخارج :

وقالوا إن نتّبع الهدى معك نُتخطّف من أرضنا أو لم نُمكّن لهم حرَماً آمناً يُجبى اليه ثمراتُ كل شيء رزقاً من لدنا ... القصص ٥٧

وهناك آيات في سورة النحل (١١٢) وسورة البقرة (١٢٦) فيها توكيد لهذا المعنى ايضاً .

ومن آية القصص يفهم أن اهل مكة كانوا يرون في حرمة البيت الحرام ، وهوى افئدة الناس اليهم أسباب معاشهم وأمنهم وحرمتهم ، وأنهم

كانوا يخوفون من الحرمان من هذه الاسباب اذا تابعوا النبي (ص) في دعوته ؛ مما يدل على المعنى الذي نحن في صدد تقريره ايضاً .

اما شدة حرارة هذه المنطقة فيمكن الاستدلال عليها من آية في سورة النحل :

والله جعل لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعل لكم سرابيل تقيكم الحرّ (١) وسرابيل تقيكم بأسكم (٢) كذلك يُتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون... النحل ٨١

حيث أشير فيها الى الظلال وأكنان الجبال التي كان السكان يهرعون اليها للاحتماء من الحرّ ؛ وكذلك فقد أشير فيها إلى السرابيل التي تقي الحر دون ان يذكر فيها السرابيل التي تقي البرد ؛ كأنه لم يكن ملجوي ألا الحرّ وشدته فقط . والآية تذكر هذا من جملة ما منّ على أهل مكة من النعم والعناية ، وهذا قد يلهم شدة ما كان يقاسونه من الحر .

وفي ذكر الجبال وأكنانها ما يدل على ما قلناه من احاطة مكة بالجبال احاطة مباشرة كما هو المتبادر .

ويمكن الاستدلال على شح المياه في هذه المنطقة من ما كان من مهمة سقاية الحاج وتوفير المياه له التي كان يقوم بها بعض بيوتات قريش .

---

(١) ان بعض المفسرين قالوا ان في هذه الجملة جملة مضمرة اخرى اكتفى بها عنها وتقديرها « تقيكم الحر وتقيكم البرد » وروح الآية من جهة واكتفائها بذكر الظلال والأكنان من جهة يجعل هذا التقدير غير قوي الورود ؛ ويجعل قصد الحر هو الاصل . على ان في سورة النور آيه تتضمن قرينة على صحة قولنا وهي « حين تضعون ثيابكم من الظهيرة (٥٧) فهذا التعبير يعني قيلولة النهار والاستبراد بالتخفف من الثياب فيه ولم يذكر مقابل ذلك عن الشتاء وفي هذا قرينة على شدة الحر دون البرد

(٢) البأس بمعنى الحرب

وقد أشير الى هذه المهمة في احدى آيات سورة التوبة في صدد المفاضلة بينها وبين الايمان بالله والجهاد في سبيله :

أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله ... التوبة ١٩

فأهتمام أهل مكة لتوفير المياه للحاج هذا الاهتمام الذي يجعلهم يرون في مهمة السقاية فضيلة عظيمة انما هو بسبب شح المياه في منطقتها كما هو المتبادر . وهذا يجعلنا ندرك الحفاوة العظيمة التي أسبغت على رواية حفر بئر زمزم وما جرى في صدد ذلك مما جاء في كتب السيرة مفصلا (١)

— ٢ —

على ان في القرآن آيات عديدة تنوه بما ينزل الله من الامطار ، ويتفجر من العيون والينابيع ، وما ينبت من الزروع وأشجار النخيل والأعناب والرمان والزيتون والثمار المتنوعة الاخرى ، وتصف ما كان يظهر على السكان من هلع اذا ما امسكت السماء واصفر الزرع من العطش ويوجه الخطاب فيها الى مخاطبين قريبين تذكرهم بنعمة الله وآياته التي يرونها ويتمتعون بها كما ترى في ما يلي :

(١) — وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نباتَ كل شيء فأخرجنا منه خضراً نُخرج منه حباً مُتراكباً ومن النخل من طلعها قنوانٌ دانيةٌ وجناتٌ من أعناب والزيتون والرمّان مشتبهاً وغير مُتشابه انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ... الأنعام ٩٩

(٢) — وهو الذي انشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخلَ والزرعَ مُختلفاً أُكله والزيتونَ والرّمان مُتشابهاً وغير مُتشابه كلوا من ثمره أذا أثمر وآتوا حقّه يومَ حصاده ... الأنعام ١٤١

٣ — وهو الذى أنزل من السماء ماءً لكم منه شرابٌ ومنه شجر

(١) اقرأ ابن هشام ج ١ ص ١٣٤ وما بعدها .

فيه تُسيمون . يُنبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ... النحل ١٠ — ١١

٤ — وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكّناه في الارض وانا على ذهاب به لقادرون . فأنشأنا لكم به جناتٍ من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون المؤمنون ١٨ — ١٩

٥ — الله الذي يرسل الرياح فتُثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودْق يخرج من خلاله فاذا أصاب به من يشاء من عباده اذا هم يستبشرون . وان كانوا من قبل ان يُنزّل عليهم من قبله لمبلسين . فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها ان ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير . ولئن أرسلنا ريحاً فرأوْه مُصفراً لظلوا من بعده يكفرون ... الروم ٤٨ — ٥١

٦ — وآية لهم الأرضُ الميتةُ أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجّرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ... ياسين ٣٣ — ٣٤

٧ — والأرض مددناها والقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل زوْج بهيج . تبصرةً وذكرى لكل عبد منيب . ونزّلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جناتٍ وحَب الحصيد . والنخل باسقاتٍ لها طلعٌ نضيدٌ .رزقاً للعباد . وأحيينا به بلدةً ميتاً كذلك الخروج ... قاف ٧ — ١١

٨ — أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشاء لجعلناه حُطاماً فظلتم تفكهون . انا لمغرمون بل نحن محرومون . افرأيتم الماء الذي تشربون . أأنتم أنزلتموه من المُزن أم نحن المنزلون لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون ... الواقعة ٦٣ — ٧٠

٩ — فلينظر الانسان الى طعامه . أنا صببنا الماء صباً . ثم شققنا الأرض شقاً . فأنبتنا به حباً . وعنباً وقضْباً . وزيتوناً ونخلاً . وحدائق غُلباً . وفاكهة وأبّاً . متاعاً لكم ولانعامكم ... عبس ٢٤ — ٣٢

فانك اذ تقرأ هذه الآيات تلمس ان القرآن كان يوجهها ويخاطب بها اهل الحجاز بل وأهل مكة في الدرجة الاولى لان الآيات جميعها مكية ومع ان الآيات بسبيل تعداد نعمة الله على الناس بصورة عامة فانها كانت ولا ريب تلفت نظر المخاطبين الاولين وهم أهل الحجاز وخاصة أهل مكة وما جاورها الى هذه النعم التي كانوا يشاهدونها ويتمتعون بها ؛ وبعبارة ثانية ان من البديهي ان تكون الآيات مصروفة الى ما كان في الحجاز نفسه وفي الانحاء المجاورة لمكة بنوع خاص من مناطق تجود فيها التربة ، وتغزر فيها الأمطار ، وتتفجر فيها العيون والينابيع ، وتخضر فيها الأرض وتربو وتنبت من كل زوج وصنف من الزروع والكلأ وحب الحصيد وأشجار النخيل والأعناب والرمان والزيتون والثمرات المتنوعة الأخرى ،

وهذه المناطق ان لم تعينها الآيات كما عينت منطقة مكة — البيت الحرام — فأنها معينة واقعياً ؛ وهي مناطق الطائف وارباضها ، والوديان التي بين مكة وجدة ، ويثرب وأرباضها كذلك . فهذه المناطق لاتزال تحتفظ الى الآن بكثير من الينابيع والوديان ، وتتمتع بخضرة السهول وجنات العنب والنخيل ومتنوع الفواكه والزروع ؛ تنزل فيها الأمطار اكثر من منطقة مكة ، فتمتلاء الوديان ، وتسيل السيول ، وتجري الغدران وتتفجر العيون والينابيع ، وتخضر الأرض وتأخذ زينتها وينبت فيها مختلف النبات والأشجار مما ينطبق عليه تلك الاوصاف الأخاذة الواردة في في الآيات بعد نزول الامطار من بهجة وخضرة وحياة .

— ٣ —

وهنالك آيات كثيرة تنوه بالبحر واوصافه وانوائه وامواجه واخطاره واسفاره ، وما يمخر فيه من الفلك والجواري المنشآت كالاعلام وما يقوم به الناس من اسفار بحرية ابتغاء الرزق والتجارة ، وما يستخرجونه منه من اللحوم ولآلي الزينة المتنوعة كاللؤلوء والمرجان كما ترى في الآيات التالية :

١ — وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ...
الانعام ٩٧

٢ — هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى أذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الى الله مخلصين له الدين . يونس ٢٢

٣ — وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . النحل ١٤

٤ — ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله أنه كان بكم رحيما . واذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم الى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا . الاسراء ٦٦—٦٧

٥ — أم أمنتم ان يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم . الأسراء ٦٩

٦ — أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا اخرج يده لم يكد يراها . النور ٤٠

٧ — وما يستوي البحران هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر ولتبتغوا من فضله . فاطر ١٢

٨ — ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام . انْ يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره . الشورى ٣٢—٣٣

٩ — مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان . فبأي آلاء ربكما تكذبان يخرج منهم اللؤلؤ والمرجان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام . فبأي آلاء ربكما تكذبان . الرحمن ١٩—٢٥

١٠ — أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيّارة . المائدة ٩٦

ومع ان هذه الآيات هي الاخرى في تعداد نعم الله وآلائه على الناس

وبسبيل الدعوة الى الله وحده ونبذ ما عداه والتذكير بانه هو الملجأ الاوحد في الشدائد والاخطار؛ فان ما فيها من ضمير المخاطب ، وما تحمله من طابع الخطاب القريب يدل على ان الكلام موجه الى المخاطبين الاولين به وهم اهل الحجاز ، وان لاهل الحجاز صلة بالاعمال البحرية المتنوعة وبالتالي يحمل الاشارات الى المنطقة الساحلية في القطر الحجازي ، وما كان يقوم به في ثغورها من حركة وملاحة وصيد وغوص ، وما كان لاهل الحجاز وخاصة مدنه وتجاره من منافع عظيمة من ذلك .

— ٤ —

وكثرة الآيات ، وتكرار التعداد ، وتنوع الاساليب ، وبكلمة اخرى هذه الحفاوة القرآنية في الاشارة الى البحار وما فيها وما يجري فوقها وما يعود منها من المنافع المتنوعة مع ما في بعضها من التعميم يمكن ان تدل على ان حركة الملاحة والصيد والغوص لم تكن ضعيفة ، وانها كانت مما يعول عليه اهل الحجاز في معايشهم وحياتهم التجارية والاقتصادية تعويلا غير يسير .

ويؤيد هذا الاستدلال الخطاب القريب في اكثر الآيات اولا ، ووجود منطقة ساحلية طويلة ، بل على طول البلاد الحجازية ثانياً ، وما بين الحجاز والاقطار المجاورة من ابعاد شاسعة يمكن ان ييسر لهم البحر واسفاره سرعة الاتصال بها وسهولته ثالثاً .

ولقد روت الروايات ان عمر بن الخطاب (رض) سأل عمراً بن العاص (رض) ان يصف له البحر فاجابه قائلاً : خلق عظيم يركبه خلق صغير مثل دود على عود ، وان عمر ابن الخطاب نهى عمراً بناءً على ذلك عن المجازفة بالمسلمين في ركوب البحر ، وقد اخذ الرواية بعض الكتاب الحديثين قضية مسلمة فقال ان عرب الحجاز لم يكونوا يعرفون البحر وركوبه وتهافت الرواية والتعليق واضح ؛ فعمر بن الخطاب وعمرو بن العاص كانا تاجرين ، وزارا بلاد الشام ومصر وفارس قبل الاسلام ، وعمرو انما

سارع الى فتح مصر بناء على معرفته السابقة بها ، ولا يعقل ان لا يكونا رأيا البحر ، والقرآن قد ذكر البحر مرات كثيرة ذكر وصف وركوب واخطار وتجارة وصيد وغوص ولا يعقل ان يكون هذا والسامعون الاولون لا يعرفون من امر البحر شيئا . هذا بالاضافة الى ان جزيرة العرب محاطة بالبحر من شرقها وجنوبها وغربها والقسم الاعظم من سكانها في المناطق القريبة من هذه السواحل ، وفريق منهم في السواحل بالذات ولا يصح ان يكون هذا وان لا يكونوا قد عرفوا أمره وانتفعوا به شتى الانتفاعات وركبوه في اسفار قريبة وبعيدة ايضاً .

المدن الحجازية

— ٥ —

يستطاع من فحوى الآيات ان يستدل على ان من سكان القطر الحجازي الحضر الذين يسكنون المدن والقرى والبدو الذين يسكنون البادية .

وقد ذكر في القرآن من مدن الحجاز مدينتان باسميهما وهما « مكة المكرمة » و « المدينة المنورة » وتخصيصهما بالذكر يمكن ان يدل على انهما كانتا المدينتين الرئيسيتين القطر الحجازي .

اما الاولى فقد ذكرت بلفظي « مكة » و « بكة » كما ترى في هذه الآيات :

١ — ان أول بيت وُضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين .
آل عمران ٩٦

٢ — وهو الذي كف ايديهم عنكم وايديكم عنهم ببطن مكة من بعد ان اظفركم عليهم .
الفتح ٢٤

وأما الثانية فقد ذكرت باسمها القديم « يثرب » وذكرت كذلك باسمها الذي اصبح علماً لها بعد الأسلام وهو المدينة كما ترى في هذه الآيات

١ — واذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا
الاحزاب ١٣

٢ — ما كان لاهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ان يتخلفوا عن رسول الله . التوبة ١٢٠

وقد اشير الى مدينة مهمة ثالثة اشارة ضمنيه في الآية الآتية :

« وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم الزخرف ٣١

حيث اجمع المفسرون على ان القريتين هما مكة والطائف .

هذا : وننبه على ان لفظا القرية والمدينة قد ترادفا في القرآن كما يستدل من الآيات التالية :

١ — واسأل القرية التي كنا فيها . يوسف ٨٢

٢ — وكأي من قرية هي أشد قوة من قريتك التي اخرجتك اهلكناهم . محمد ١٣

حيث اريد في الاولى مصر وفي الثانية مكة كما هو ظاهر .

كذلك سمى القرآن العاصمة او المركز الكبير الذي تتجمع حوله المدن الثانوية والقرى باسم « أم القرى » كما ترى في هذه الآية :

وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في امها رسولا يتلو عليهم آياتنا . القصص ٥٩

— ٦ —

وقد اطلق هذا الاسم على مدينة مكة كما ترى في الاية التالية :

وكذلك اوحينا اليك قرآناً عربياً لتنذر ام القرى ومن حولها .. الشورى ٧

ومما لا ريب فيه ان هذه التسميات كانت جارية مألوفة قبل نزول القرآن ، لان القرآن قد نزل بلسان القوم ومصطلحاتهم .

ومن اطلاق لفظ « أم القرى » على مكة يمكن ان يستدل على انها كانت مدينة كبيرة كما يستدل من آيتي القصص وابراهيم ٥٧ و٣٧ اللتين نقلناهما قبل على انها كانت تتمتع بمركز محترم ، وتوجه عام من سائر الانحاء . ولقد كان موقف اهلها السلبي من الدعوة النبوية عاملاً الى

درجة كبيرة في وقوف سائر مدن الحجاز وقراها وسكان باديتها بل وسكان انحاء جزيرة العرب الاخرى بوجه عام مثل ذلك الموقف ، كما أن فتحها ودينونتها بالاسلام كانا عاملين رئيسيين في دينونة جميع اولئك بالاسلام ودخولهم في دين الله افواجا كما هو ثابت بالتواتر وكما يستدل عليه من سورة النصر :

« اذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون في دين الله افواجاً . فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توّابا »

وهذا مؤيد لما قررناه من خطورة شأن مكة « أم القرى » وتمتعها بالمركز المحترم ، والتوجه العام .

ومما لا ريب فيه ان وجود الكعبة ومناسك الحج في مكة وحواليها كان عاملاً كبيرا او العامل الاكبر في تلك الخطورة وهذا المركز والتوجه الذين كانت تتمتع بهما .

ولعل ما كان من ارتداد اصحاب الفيل وما حل فيهم عندها قبل مدة قليلة من البعثة مما ذكرته سورة الفيل : « ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف(١) مأكول . » كان من العوامل التي وطد لمكة مركزها وهيبتها وخطورتها التي كانت لها قبل هذا الحادث على ما هو المتبادر .

— ٧ —

ومن اطلاق لفظ « أم القرى » على مكة يمكن الاستدلال على وجود مدن ثانوية وقرى عديدة في القطر الحجازي وخاصة في منطقة مكة . وقد يستلهم هذا من الآيات التالية ايضاً :

« افأمن اهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون . او أمن أهل القرى ان يأتيهم بأسنا ضُحىً وهم يلعبون . أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون . الاعراف ٩٧ — ٩٩

(١) ورق الزرع

ومن هذه المدن والقرى ما لا يزال موجوداً ومعروفاً ؛ ولا بد من ان قرى كثيرة كانت ثم عفت ولم يبق منها الا رسوم او اطلال او لم يبق منها شيء . ويقع المطالع في الكتب العربية وكتب السيرة على اسماء كثير من القرى عفي اكثرها ، وهذا مما يؤيد الاستدلال .

— ٨ —

ومع ان خطورة مكة والاتجاه العام اليها هما بسبب وجود الكعبة ومناسك الحج فيها كما قلنا ، فان في بعض الآيات ما يدل على ان من اسباب هذه الخطورة ما كان فيها من حركة تجارية واسعة ومستمرة ، وما كان اهلها يملكونه من ثروات طائلة ايضاً .

فسورة قريش تشير الى حركة رحلات التجارة المكية صيفاً وشتاءً وحركة الاستعداد الدائمة لها :

« لايلاف قريش ايلافهم . رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت الذي اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » .

وهذه بعض آيات تدل على ثرواتهم الطائلة :

١ — واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا (١) . الكهف ٢٨

٢ — واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاماً واحسن نديا . مريم ٧٣

٣ — ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه . (٢) طاها ١٣١

٤ — أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم في

---

(١) فيها امر للنبي بالتزامه المسلمين على فقرهم وعدم تركهم قصد ملاحقة الاغنياء ذوي الزعامة والجاه .

(٢) فيها نهي مماثل في مداه لما في آية الكهف ودلالة على ما كان بعض اهل مكة يتمتعون به من ثروة وترف .

الخيرات بل لا يشعرون. المؤمنون ٥٥ — ٥٦

٥ — وقالوا نحن اكثر أموالا واولاداً وماتحن بمعذبين . (١) سبا ٣٥

٦ — ذرني ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا . المدثر ١١ — ١٢

٧ — يقول أهلكت مالا لبداً . البلد ٦

٨ — ويل لكل همزة لمزة . الذي جمع مالا وعدده . يحسب ان ماله أخلده الهمزة ١ — ٣

— ٩ —

ومن الآيات التي نقلناها قبل قليل يستدل على ان مكة كانت تعتبر مدينة مقدسة ، وان منطقتها كانت حرماً أي ان القتال وسفك الدم فيها محرمان بسبب هذه القدسية . وفي سوره العنكبوت آية تشير الى هذا المعنى بوضوح حيث تذكر اهل مكة بما يتمتعون به من الامن بسبب حرمهم بينما يتعرض غيرهم للاخطار والمخاوف الدائمة :

« اولم يروا أنا جعلنا حرماً امناً ويُتخطف الناس من حولهم .

العنكبوت ٦٧

والفقرة الثانية من آية سورة قريش الثالثة تؤيد هذا المعنى ايضاً .

وآية القصص (٥٧) تلهم ان مكة لم تكن محصنة ، وان اهلها انما كانوا يعتمدون في امنهم على قدسيتها في الدرجة الاولى ؛ حيث تحكي اعتذار بعض الزعماء للنبي عن عدم متابعتهم له وقولهم انهم اذا تبعوه وتخلوا عن تقاليدهم التي تقدست بها مكة زالت مناعتها واصبحت عرضة لهجوم المهاجمين وتخطفهم اهلها بسيوفهم :

« وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرماً امنا يجبى اليه ثمرات كل شيء . القصص ٥٧

ويظهر ان ما احتوته الفقرة الثانية من تقرير بقاء قدسية مكة وحرمتها في الاسلام لم يطمئنهم فظلوا في موقفهم الجحودي ذلك الامد الطويل .

(١) الآيات جميعها مكية وموضوع الكلام فيها اهل مكة كما هو المتبادر .

وفي الآيات المدنية ما يمكن الاستدلال به على ان يثرب كانت مدينة كثيرة السكان ، وخطيرة الشأن والمركز ايضاً . فقد كان يسكن في احيائها وارباضها المتصلة بها قبائل عديدة من اليهود كانوا ذوي أموال طائلة ، وحصون وقلاع منيعة ، وبساتين وأرضين غنية كما ترى في الآيات التالية :

١ — وأنزل الذين ظاهروهم من اهل الكتاب من صياصيهم (١) وقذف في قلوبهم الرّعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً . واورثكم ارضهم وديارهم واموالهم وأرضاً لم تطوؤها وكان الله على كل شيء قديراً

الاحزاب ٣٦ — ٢٧

٢ — هو الذي أخرج الذين كفروا من اهل الكتاب (٢) من ديارهم لاول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فاتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بايديهم وايدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار .

الحشر ٢ — ٣

٣ — ما قطعتم من لينة (٣) او تركتموها قائمة على اصولها فباذن الله وليخزي الفاسقين . وما افاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء

---

(١) صياصيهم = حصونهم . والمعنيون الآيات هم يهود بني قريظة وكانوا يسكنون في المدينة وارباضها وهم آخر من نكل بهم .

(٢) المعنيون في الآيات هم يهود بني النضير وكانوا يسكنون في المدينة وارباضها ، وقد اجلوا قبل وقعة بنى قريظة .

(٣) لينة = نخلة صغيرة ؛ والآية تشير الى ما كان من امر النبي بتقطيع بعض بساتين بني النضير ارغاماً لهم .

قدير . ما أفاء الله على رسوله من اهل القرى (١) فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . الحشر ٥ — ٧

٤ — لا يقاتلونكم جميعاً ألا في قرى محصنة او من وراء جدر بأسهم بينهم شديد . الحشر ١٤

٥ — كمثل الذين من قبلهم (٢) قريباً ذاقوا وبال امرهم ولهم عذاب اليم . الحشر ١٥

ويلفت النظر الى آية الحشر الثانية حيث تتضمن وصفا قويا لما كانت عليه حصون اليهود من مناعة واليهود انفسهم من قوة ؛ حتى ان المسلمين لم يكونوا يأملون في النصر عليهم واخراجهم كما ان اليهود انفسهم كانوا يعتقدون انهم اقوى من ذلك وانها مانعتهم .

وقد كان يسكن المدينة الى جانب اليهود بطون عربية عديدة وقوية البأس ، وكانت المدينة وضواحيها مسرحاً لما كان يقع بينها من حروب بسبب ما بينها من عداء كما ترى في الآيات التالية :

١ — واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا . آل عمران ١٠٣

٢ — وهو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين (٣) وألف بين قلوبهم لو انفقت ما في الارض جميعاً ما الفت بين قلوبهم ولكن الله الف بينهم انه عزيز حكيم . الانفال ٦٣

٣ — ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل

---

(١) اشارة الى ما وهبه الله للنبي من اموال وكروم ومزارع بني النضير .

(٢) المعنيون في الآية هم يهود بني قينقاع . وكانوا يسكنون في المدينة . وقد كانوا اول من اجلاهم النبي من اليهود .

(٣) في هـذا اشارة الى قوة بأس عرب المدينة الذين عرفوا بالانصار .

الله والذين آووا ونصروا (١) . الانفال ٧٢

واذا كان في القرآن ما امكن الاستدلال به بصراحة على ما كان لليهود من حصون وقلاع وثروات وارضين هي من اسباب وشأن المدينة فلا يعني هذا ان العرب لم يكن لهم مثل ذلك . ففي الآيات المدنية على انه كان مثل هذا للمسلمين ، وجلهم ان لم يكن كلهم عرب ، واكثريتهم الساحقة من اهل المدينة لان اكثر هذه الآيات مما نزل قبل الفتح المكي حيث كثر عدد المسلمين من غير اهلها ، وهذا بعض الآيات :

١ — يا ايها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ومما اخرجنا لكم من الارض . البقرة ٢٦٧

٢ — قل انفقوا طوعاً او كرها لن يتقبل منكم انكم كنتم قوماً فاسقين . وما منعهم ان تقبل منهم نفقاتهم إلا انهم كفروا بالله ورسوله ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ولا ينفقون الا وهم كارهون . فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم انما يريد الله ان يعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق انفسهم وهم كافرون (٢) . التوبة ٥٣ — ٥٥

وقد ذكرت روايات السيرة المعتبرة انه كان للعرب بعض الآكام والحصون كما كان لليهود ، وان كنا نرجح ان حصون اليهود وقلاعهم كانت اكثر واقوى . ولعل هذا مما تلهمه آية في سورة الاحزاب بالاضافة الى آية الحشر (٢) . اما آية الاحزاب فهي :

« ويستأذن فريق منهم النبي يقولون ان بيوتنا عورة وما هي بعورة الاحزاب ١٣

حيث تحجج بعض المنافقين بان بيوتهم مكشوفة لحصون اليهود . والآية منصبة على تكذيب المحتجين وليس على نفي ما تلهمه هي وآية الحشر كما هو المتبادر .

---

(١) في هذه الجملة اشارة الى الانصار ودلالة على قوة باسهم .

(٢) موضوع الخطاب والتنديد هم المنافقون وجميعهم من اهل المدينة .

ومن اسباب خطورة مركز المدينة وقوعها في طريق القوافل التجارية الغادية الرائحة بين الشام والجزيرة . ولقد تضمنت احدى آيات الانفال اشارة الى ذلك حيث اشير الى قافلة مكية كانت تمر قرب المدينة رأى النبي (ص) فرصة لضرب اهل مكة وضرب تجارتها وهي :

وإذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم وتودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم ... ٧

وغير ذات الشوكة هي القافلة التجارية المكية التي لم يكن معها حامية كافية .

— ١١ —

وليس في القرآن ما يستدل به على خطورة مدينة الحجاز الثالثة « الطائف » غير آية الزخرف (٣١) التي نقلناها قبل . والتي يستدل منها على ان خطورة شأن رجالها واهلها مقاربة لما كان من ذلك لرجال مكة واهلها ؛ لانها تحكي عجب كفار اهل مكة وقولهم انه كان الاولى ان كان القرآن الهياً ان ينزل على عظيم من عظماء مكة او الطائف . على ان الروايات القديمة المعتبره قد ذكرت ان الطائف كانت مدينة كبيرة وغنية ، وان اهلها ذوو بأس ، وانها كانت محصنة بسور ، ولعلها الوحيدة في ذلك بين مدن الحجاز .

— ١٢ —

اما سكان المدن الحجازية فقد كانوا انواعاً في الجنس والدين كما تلهم الآيات القرآنية بالنسبة للاثنتين الرئيسيتين منها وهما مكة ويثرب ، حيث تلهم انه كان في مكة جالية اجنبية قليلة الى جانب اكثرية أهلها العرب الذين عينت سورة قريش أسمهم القبيلي العام وهو « قريش » كما تلهم انه كان الى جانب اكثرية سكانها المشركين اقلية كتابية وموحّدة على ما سوف نلم به في فصول اخرى ؛ وحيث تلهم انه كان في يثرب جاليه اسرائيلية كبيرة العدد على التحقيق ، واقلية نصرانية عربية واجنبية على

الاحتمال الى جانب اهلها العرب أيضاً على ماسوف نلم به في فصل آخر كذلك . واذا كان ليس بالقرآن أشارات يمكن الاستدلال بها على الحالة في المدن الاخرى فان الذي نرجحه ان ثغر الحجاز جده لابد من ان يكون فيه تنوع في السكان جنساً وملةً بسبب طبيعتها الساحلية . اما الطائف فنرجح انها أقل المدن الحجازية المهمة تنوعاً في السكان .

وننبه على أمرهم في صدد اكثرية سكان هذه المدن ، حيث يستلهم من بعض الآيات من جهة ومن الروايات المتواترة البالغة حد اليقين من جهة اخرى انها كانت ماتزال في حياتها الاجتماعية في طور الكيان القبيلي . فقريش التي هي اكثر سكان مكة على ماالهمته سورة قريش متفرعة الى بطون عديدة على النمط القبيلي تمت جميعها الى أسم قريش والى أصل او جدّ واحد غير بعيد في القدم . ومما يمكن الأستلهام به على هذا آية زوجات النبي (ص) في سورة الأحزاب :

« يا ايها النبي إنا أحللنا لك ازواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك . ٥٠

ومن الثابت اليقيني انه لم يكن بين زوجات النبي (ص) من هي بنت عم مباشر له ولم يكن بينهن من هي من بطن هاشم عشيرة النبي (ص) الأقربين ؛ وانما كن من بطون قريش الاخرى ، فعائشة بنت ابي بكر (رض) من بطن التيم وحفصة بنت عمر (رض) من بطن عدي وام حبيب بنت ابي سفيان (رض) من عبد شمس وام سلمه (رض) وسوده بنت زمعه (رض) من بني عامر . وهكذا تكون النسبة القرآنية هي نسبة قرابة البطون التي تتألف منها قبيلة قريش . والمعروف في التقاليد العربية ان اخوال اب الرجل وجده هم أخواله وأعمام ابي الرجل وجده هم أعمامه ايضاً ؛ وقد حمل اكثر من مفسر ومنهم من استند الى رواية عن عباس أية الشورى :

قل لاأسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى .. ٢٣

على هذا الحمل ؛ واولوا الآية بأن الله امر نبيه بتذكير قريش بما يربط بهم من قربى توجب عليه النصيحة لهم دون ان ينتظر أجراً وتوجب عليهم الاستجابة اليه لانه غير متهم ؛ وهو تأويل في غاية الوجاهة .

وعرب يثرب يتألفون من قبيلتين يمانية المصدر واعلها من أصل واحد ، وهما قبيلتا الخزرج والأوس اللتين أشرنا اليهما قبل وقلنا انهما كانتا متعاديتين قبل الهجرة النبوية ؛ وكلتاهما مقسمة الى بطون على النمط القبيلي ايضاً مثل بني عوف وبني النجار وبني الحرث وبني جشم وبني ساعدة الخ

وعرب الطائف هم قبيلة ثقيف التي لابد من ان تكون هي الأخرى مقسمة الى فروع مثل فروع قريش والأوس والخزرج .

وكما ان عرب المدن الحجازية كانو في طور الكيان القبيلي فانهم كانوا في حياتهم الاجتماعية ضمن نطاق هذا الطور ايضاً ، حيث كانت تقوم على أساس العصبية الاجتماعية على ماسوف نلم به في فصل أخر .

اما حياتهم المعاشية فقد كانت مع انطباعها بطابع حياة المدن على الغالب حيث كانت مجالاً لحركة اقتصـــادية نشيطة تجارية وزراعية وصناعية ؛ وحيث كان اهلها او فريق منهم يتمتعون بحياة ترف ونعيم حضرية فانها لم تكن قدامحي عنها طابع البداوة وحياتهـا ، وكانت الصلات بين اهلها وبين البادية والبدو وثيقة من ناحية الحياة الاجتماعية ومن ناحية الحياة المعاشية معاً على ماسوف نلم به كذلك في فصول أخرى .

البادية والبدو

— ١٣ —

قلنـا قبل ان الآيات تشير الى ان سكان القطر الحجازي حضر وبدو . وقد ذكر القرآن البدو « بمعنى « البادية » كما جاء في سورة يوسف :

« ... وقد أحسن بي اذا أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو ١٠٠

واطلق كلمة الاعراب على القبائل البدوية تفريقاً لهم عن سكان المدن والقرى كما ترى في الآيات التالية :

١ — « وممن حولكم من الاعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق .... التوبة ١٠١

٢ — يحسبون الاحزاب لم يذهبوا وان يأت الاحزاب يودوا لو انهم بادون في الاعراب .... الاحزاب ٢٠

ومن آية التوبة يمكن ان يستدل على ان من الاعراب من كان ينزل حول المدن كما أن آية الاحزاب يمكن ان تلهم ان منهم من كان يوغل في البادية ولا يلم بالمدن الا قليلاً .

وفي بعض الآيات وصف قارع للاعراب ، وهو ماجاء في سورة التوبة في صدد وصف كفارهم ومنافقيهم : « الاعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ان لايعلموا حدود ماانزل الله على رسوله .... التوبة ٩٧

والمتبادران هذ الوصف مما يتصل بما كان عليه الاعراب من جفاء طبع وقسوة وجهل وضعف مرونة وقلة صقل وتهذيب . وبالتالي انه صورة لأخلاق وطبائع البدو بصورة عامة واخلاق وطبائع الاعراب في عصر النبي (ص) وبيئته بصورة خاصة .

وليست هذه الآيه هي الوحيدة فى صدد طبائع الاعراب في عصر النبي (ص) وبيئته . ففي سورة التوبة ايضاً الآية التالية :

ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم ... ٩٨

حيث تصف طبيعة الحذر والتربص فيهم ، وبطوء الاستشعار بالايمان والصدور عنه فى أعمالهم .

ولقد كان من الاعراب منافقون كما تدل على ذلك الآية التالية من سورة التوبة أيضاً:

وممن حولكم من الاعراب منافقون ... ١٠١

والمتبادر ان نفاق الاعراب متصل بطبائعهم وأخلاقهم [1] التي أشرنا

(١) مما لا شبهة فيه ان ابن خلدون حينما وصف العرب بما وصفهم به في مقدمته انما قصد الأعراب منهم ، ولا يمكن ان يكون قد قصد بوصفه العرب مطلقاً بدوهم وحضرهم ؛ لا سيما والاستعمال كان قد فشا في اطلاق كلمة « العرب » على البدو ومنازلهم في البادية ، وهو ما لم يزل فاشياً الى اليوم . والمناسبة هنا سانحة للقول ان ابن خلدون لم يكن على حق حينما وصف العرب بما وصفهم به حتى ولو كان قصده أعرابهم وليس العرب مطلقاً كما هو الأرجح ألا اذا كان اراد بوصفه الأعراب في طورهم البدوي . لأن البداوة طور من أطوار الانسانية وليست جبلة لجيل من الناس اوجنس البشر ، ولأنه لا بد من ان يكون قد رأى وعلم ان كثيراً من البدو العربي قد تحضروا بعد الفتح الأسلامي ومصروا الأمصار ، وشاركوا في بناء السلطان العربي والحضارة العربية ، ولم يعد يمكن ان يظل ما يوصف به الأعراب من جفاء وغلظة طبع وجهل وميل الى التخريب وعداء للاستقرار والنظام عالقاً بهم . وهذا ليس شأن العرب وأعرابهم خاصة بل هو شأن بني الانسان عامة . فكل أمة وقبيل قد عاشوا في أول امرهم بدواً متنقلين في الفيافي والجبال والأحراج والمغاور على الصيد والكلاء وتربية المواشي لا يعرفون الاستقرار ولا يطيقونه ، خشناً في معيشتهم ، جفاةً في طبائعهم ، ضعفاء في مداركهم ، جهلاء لما يحيط بهم ، نفورين من القيود والتنظيم ، ثم تدرجوا فزرعوا واستقروا وتحضروا وتطوروا في الحياة واصبحوا مترفين ناعمين دمثين رقيقين ، واستطاعوا ان يشيدوا الممالك وان يضعوا النظم ، وان يدركوا قيمة العمران ومدى الحضارة . والعرب كانوا كذلك في كثير من انحاء جزيرتهم قبل ان يخرجوا منها ويتخذ بعضهم المدن مسكناً ، ثم من بعد ان خرجوا قبل الاسلام وبعده . وهؤلاء الأشوريون والكلدانيون والفنيقيون والكنعانيون الذين خرجوا قبل الأسلام بقرون عديدة ، ثم هؤلاء —

اليها اكثر مما هو متصل بالاسباب المحلية التي نشأ عنها نفاق المنافقين في المدينة . حيث هذا كان منهم استجابة لبعض زعماء فاتتهم المنافع العظيمة من هجرة النبي (ص) وانتشار دعوته ورسوخ قدمه [1] وحيث كان لتحريض اليهود في المدينة ودسهم اثر كبير فيه [2] .

وفي سورة الفتح آيات تلهم ما كان عليه البدو من طبائع متصلة بما ذكرناه :

سيقول لك المخلفون من الاعراب شغلتنا أموالنا واهلونا فاستغفر لنا يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً ان اراد بكم ضراً او أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً . بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً ... ١١ — ١٢

حيث تصف حذرهم من التورط حينما يكون الخطر هو الغالب ؛

— اليمانيون الأولون الذين بقوا في بلادهم التي عرفت بالسعيدة كانوا بدواً أولاً ومتصفين بكل صفات البدو ثم تحضروا وصارت لهم صفات الحضر وعاداتهم واخلاقهم ومداركهم وبعد أفقهم ومعايشهم وعلومهم وقوانينهم ، لم ينقصوا عن غيرهم في ما أخذه هذا الغير من طريق الحضارة ومدارجها على اختلاف في الدرجات ، نشأ عن اختلاف في طبيعة الاقليم والتقدم والتأخر في السير في طريق التطور الانساني . ومن الأدلة على هذا انه كان في عصر النبي (ص) وبيئته كما كان في بلاد اليمن في عصر النبي (ص) وقبله عرب حضر لهم كثير من صفات الحضر ووسائلهم وعرب بدو . وكانت صلة الحضر منهم وثيقة واوشاجهم قائمة بالبدو في ذات الوقت .

(١) مما ورد في ابن هشام ان الخزرج كانوا يزمعون تتويج رئيسهم عبد الله ابن ابي عليهم ملكاً قبل قدوم النبي فتعطل هذا بأسلام الأنصار وهجرة النبي (ص) فساق هذا عبد الله الى النفاق وتولى زعامة الحركة ..

(٢) في القرآن آيات كثيرة ؛ وقد وصفت آية البقرة (١٣) اليهود بأنهم شياطين المنافقين اي الموسوسون لهم ...

فأن الآية نزلت بمناسبة دعوة النبي (ص) الأعراب المسلمين الى الأشتراك مع سائر المسلمين في زيارة الكعبة، وهي الزيارة التي انتهت بصلح الحديبية فرأوا ان النبي (ص) والمسلمين سيتعرضون لمناوأة وحرب شديدة يغلبون فيها، وقد لا يرجع منهم أحد فقضلوا التخلف.

«وفي السورة نفسها آية تصف حرصهم على الكسب حينما يكون مأمون العاقبة:

«سيقول لك المخلفون أذا انطلقتم الى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون ان يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون الا قليلا ...» ١٥

حيث كان النبي (ص) مزمعاً على غزو خيبر، وكان المتبادر ان تكون الرحلة سهلة مضمونة الربح مأمونة العاقبة.

وفي سورة الحجرات آية نزلت بمناسبة جفاء سلوكي صدر منهم حيث جاء وفد بدوي الى المسجد، فلما لم يجد النبي (ص) لم يبال ان أخذ يناديه من وراء حجراته بأسلوب جاف ناب عن الذوق:

«ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ...» ٤

وهذا متصل بطبعهم الذي أشرنا اليه. وفي السورة نفسها آيات أخرى تذكر منّهم على النبي (ص) بأسلامهم في حين كان اسلامهم سطحياً ولم يصبح بعد ايماناً قلبياً:

١ — قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الأيمان في قلوبكم ... ١٤

٢ — يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنّوا عليّ أسلامكم ... ١٦

وهذا متصل كذلك بطبعهم المذكور.

على ان هناك آية تصف فئة من الأعراب قد نفذ الأيمان الى قلوبها وأخذت أعمالها تصدر عنه كما ترى:

«ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات

مما يدل على ان طبائع البدو لم تكن متحجرة ، وان أثر الصقل الأسلامي لم يلبث ان أخذ يبدو عليهم مما هو متسق مع طبائع الأمور.

الجنسية العربية

— ١٤ —

قد يكون من البدائه ان يقال ان أكثرية سكان الحجاز عربية . ومع ذلك فان مما لا يخلو من فائدة ان نذكر ان هذه الحقيقة مما تضمنت النصوص القرآنية تقريره ، فقد كررت الآيات كلمة « العربي » في صدد تقرير لغة القرآن ، وقررت ان الرسول الذي يرسله الله انما يرسله بلسان قومه ، وان الله انما انزل القرآن عربياً لقوم يعلمون ، ولينذر به أم القرى ومن حولها ، وانه يسره بلسانه لعلهم يتذكرون به ، وانه لو نزله بلسان أعجمي — غير عربي — لما فهموه ، ولاعترضوا وطلبوا تفصيله بالعربية كما ترى في الآيات التالية :

١ — إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ... يوسف ٢

٢ — وكذلك أنزلناه حُكماً عربياً ... الرعد ٣٧

٣ — وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسان قومه ليبيّن لهم ... ابراهيم ٤

٤ — نزل به الروح الامين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين . وانه لفي زُبر الأولين . أو لم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بني اسرائيل . ولو نزلناه على بعض الأعجمين . فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ... الشعراء ١٩٣ / ١٩٩

٥ — كتاب فُصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ... فصلت ٣

٦ — ولو جعلناه قُرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي ... فصلت ٤٣

٧ — وكذلك أوحينا اليك قرآناً عربياً لتنذر أمّ القرى ومن حولها الشورى ٧

٨ — فانما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون .. الدخان ٥٨

فهذه الآيات كما ترى تقرر صراحة وضمناً ان القوم الذين أرسل الله اليهم النبي (ص) عرب وانه منهم .

— ١٥ —

على أن هناك شيئاً مهماً نحب ان نضيفه الى بديهة عروبة أكثر اهل الحجاز وهو ان هذه الجنسية العربية لم تكن شيئاً قاصراً على أهل الحجاز بل كانوا من ضمن كيان عام عربي الجنس مستقر ومفهوم المدى في عصر النبي (ص) يشعر به العرب أنفسهم ، ويشعر به غير العرب من الامم المجاورة لجزيرة العرب ويعرفونه ، ويشتمل على أهل الجزيرة العربية أولا بما فيهم أهل الحجاز ، وثانياً على العرب الذين هم في أطراف الجزيرة الشمالية اي في البلاد الشامية والعراقية ، حيث كان فريق منهم غادياً ورائحاً ، وفريق آخر مستقراً ، وفريق بادياً يسكن بوادي الشام والعراق وفريق متحضراً يسكن المدن والقرى ، ويتمتع بالملك والسلطان ، ووسائل الحياة الناعمة المترفة ، وله الصلات القوية البارزة مع الساسانيين في العراق وفارس والرومانيين في الشام . وفي القرآن ما يمكن الاستناد اليه في تأييد هذا الذي نقرره .

ففي آيات ذكرت فيها كلمتا « قوم » و « أمة » موجهتين الى قوم النبي (ص) وامته وهم العرب كما ترى في مايلي :

١ — وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ... البقرة ١٤٣

٢ — وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل . الانعام ١٦

٣ — وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه . ابراهيم ٤

٤ — وانه لذكر لك ولقومك ولسوف تسألون . الزخرف ٤٤

واذا قيل ان كلمتي « قوم » او « امة » قد لا يفيدان معنى الكيان العام الشامل للجنس العربي لا سيما في ذلك العهد ، ولانهما قد توجهان الى قبيل

او جماعة او ملة او اهل بيئة ما ، وان الآيات قد عنت اهل مكة ففي القرآن تأييد آخر وذلك هو الآيات التي وردت فيها كلمات الاعجمي مطلقة على غير العربي ، وهو التفريق الذي جرى عليه الاستعمال بصورة واسعة وعامة بعد الاسلام ، بحيث اعتبر كل ما هو غير عربي جنساً ولغة اعجمياً ، وفي سورة النحل آية في هذا الصدد وهي :

« ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشرٌ لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين ... ١٠٣

بالاضافة الى آيات الشعراء ١٩٣ — ١٩٩ وفصلت ٤٣ التي نقلناها قبل قليل . فاستعمال هذا التعبير في المعنى الذى اشرنا اليه في آيات مكية والآيات — جميعها مكية — دليل على ان هذا الاستعمال وهذا المعنى كانا شائعين مفروغين قبل البعثة ؛ وشيوعها برهان قوي على استقرار معنى اسم « الامة العربية » او « الجنس العربي » وشموله لمن كان يتكلم باللغة العربية في الجزيرة ، ولمن ينتسب اليها ويتصل بها في المنشأ والانساب والارحام من العرب الذين كانوا في اطراف الجزيرة ومهاجرها حتماً وسواء منهم المتحضرون او البدو .

واذا كان ليس في الامكان تحديد وقت هذا الاستقرار في فهم العرب وغير العرب كون العرب امة او جنساً واحداً فاننا لا نشك بانه يرجع الى زمن غير قصير قبل البعثة ؛ لان تعبير « العرب » . اذا كان اطلق في اول الامر على بعض قبائل العرب في بعض مساكنهم فانه لا يمكن ان يكون قد اصبح تسمية عامة شاملة لكل العرب ، ومفرقة لهم عن الاعاجم — غير العرب — كما جاء في القرآن الا قبل نزوله بمدة طويلة (١)

(١) إذا اردنا ان نستند الى روايات التاريخ التي ذكرت ان الرومانيين حينما استولوا على « بطرا » او بلاد الحجر كما نظن ان القران قدسماها قد سموها « الولاية العربية » امكننا ان نقول ان تسمية « العرب » واطلاقها على العرب او فريق ممن ينتسب بالنشأة اليهم يقتضي ان يرجع الى —

هذا : ونريد ان نبحث في موضوع قرآني يتصل باصل سكان بيئة النبي (ص) . ففي القرآن آية مكية فيها اشارة الى حادثة اسكان ابراهيم (ص) بعض ذريته في منطقة البيت الحرام اي مكة ؛ وهي آية سورة ابراهيم (٣٧) التي نقلناها في مبحث سابق ؛ وفيه كذلك آيات تحتوي اشارة الى حادثة بناء ابراهيم واسماعيل (ص) الكعبة ، وفيها دعاؤهما بجعل البيت آمناً وبجعل ذريتها امة مسلمة ، وبعث رسول منهم اليهم مما يقوم قرائن قوية على ان المقصود بالدعاء هم العرب :

« واذ جعلنا البيت مثابةً للناس وامناً واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى

— قرون كثيرة قبل الاسلام ؟ لان تسمية الرومان هذه كانت قبل سبعة قرون وطبيعي ان يكون تعبير « العرب » معروفاً ومطلقاً على هذه البلاد وسكانها قبل ذلك بامد غير قصير ايضاً .

اما تسمية بطرا باسم بلاد الحجر في القرآن فاننا نستند فيها الى ماجاء فيه من وصف الحجر وصفا مطابقا لوصف بطرا كما ترى :

« ولقد كذب اصحاب الحجر المرسلين . ولقد آتيناهم اياتنا فكانوا عنها معرضين . وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا امنين ... سورة الحجر ٨٠—٨٢ » وبطرا هي مدينة او مساكن منحوتة في الجبال لاتزال اثارها العجيبة قائمة الى اليوم في وادي موسى في بلقاء شرق الاردن . والتسمية اعجمية ومعناها الحجر او الصخر ووصف آيات القرآن مطابق لآثار بطراء. وفي جنوب هذه الناحية « مداين صالح » والنبي الذي ارسل الى اصحاب الحجر او الصخر او ثمود هو النبي صالح (ص) فالمنطق يؤدي الى تأييد كون بلاد الحجر المذكورة في القرآن هي نفس بلاد الانباط التي استولى عليها الرومان وسموها الولاية العربية ، وكون الوصف هو وصف عاصمتها التي سماها الرومان « بطرا » لانها منحوتة في الصخر وان تكون الكلمة ترجمة لكلمة « الحجر » التي يحتمل ان تكون هي الشائعة في ذلك العهد .

(١) وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود . واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق اهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير . واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وارنا مناسكنا وتب علينا انك انت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك انت العزيز الحكيم . » البقرة ١٢٥ — ١٢٩

وفيه آية توجه الخطاب الى المسلمين الذين كانوا اذ ذاك هم العرب من بيئة النبي (ص) فقط تذكر ابراهيم (ص) بصفته ابيهم :

« وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة ابيكم ابراهيم . الحج ٧٨

هذا عدا ما فيه من آيات كثيرة أخرى سنوردها في الفصول الاخرى عن صلة ابراهيم (ص) بالكعبة وتقاليد الحج وملته ومواقفه لم ترد في التوراة .

واسلوب الآيات القرآنية مما نقلناه وما سوف ننقله يلهم ان محتوياتها ليست غريبة المعنى والموضوع على اسماع الذين تتلى عليهم ؛ وتسوغ القول ان أهل بيئة النبي (ص) كانوا يعرفون انهم ينتسبون بالابوة الى ابراهيم واسماعيل (ص) ويتداولون ذلك جيلا بعد جيل ، وان ما قاله بعضهم من ان ذلك انما كان من تقريرات قرآنية مدنية وبعد احتكاك النبي (ص)

---

(١) مقام ابراهيم هو مكان في فناء الكعبة مايزال معروفاً بالتواتر الذي لم ينقطع . وفي سورة آل عمران آية جاء فيها « ان اول بيت وضع للناس الذي ببكة مباركاً وهدىً للعالمين . فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمناً . ٩٦—٩٧ » وقد ذكر المفسرون والرواة أن هذه البينات هي حجر فيه اثر قدم تعارف العرب على انها اثر قدم ابراهيم (ص) حيثما كان يرفع عليه قواعد الكعبة .

باليهود هو قول جزاف ؛ ولعل من الادلة الحاسمة على هذا ذكر القرآن مقام ابراهيم وبيناته في البيت الحرام ، لان هذا متصل بما كان معروفا ومتداولا بين العرب قبل نزوله .

ولسنا نعني نفي احتمال كون اليهود هم المصدر الاول لما كان يتداوله العرب من قضية انتسابهم بالبنوة الى ابراهيم واسماعيل (ص) ، فنحن نرجح هذا ، لان التوراة هي اقدم مدونة ذكرت ابراهيم واسماعيل (ص) وفيها قصة ولادة اسماعيل (ص) وطرده مع امه الى فاران كما فيها قصة نموذجية اسماعيل وانتشارها ، وتسميتهم بالاسماعيليين ، وفيها قرائن في مناسبات عديدة على ان العرب كانوا ممن تعنيهم هذه التسمية ايضاً ، وانما الذي ننفيه القول بان القرآن لم يقرر نسبة بنوة العرب لابراهيم واسماعيل (ص) ونسبة صلاتهم بالكعبة والحج الا بعد الهجرة وبعد اتصال النبي باليهود ، كانما يعني به ان العرب كانوا في جهل من هذا قبل البعثة .

اللغة العربية واللغة القرآنية

— ١٧ —

واذا كان من تحصيل الحاصل ان يقال ان لغة اهل الحجاز — اي اكثرية سكانها الساحقة — هي العربية ، وان هذا صريح في النصوص والملهمات القرآنية فان من المهم ان يضاف الى هذا بهذه المناسبة الحقائق التالية :

اولاً — ان اللغة القرآنية بوجه عام هي اللغة التي كان يتفاهم ويتخاطب بها اهل الحجاز في عصر النبي (ص)

ثانياً — ان هذه اللغة لم تكن لغة اهل الحجاز فقط ، بل كانت اللغة العامة المشتركة التي كان يتفاهم العرب بها في جميع انحاء الجزيرة واطرافها ومهاجرها القريبة من حيث الاجمال . وبكلمة اخرى ان اللغة القرآنية التي يصرح القرآن انها لغة النبي (ص) وقومه هي اللغة التي كانت شائعة ومفهومة في عصر النبي (ص) بين العرب حضرهم وبدوهم ، قاصيهم ودانيهم ، وليس بين عرب الحجاز فقط . فكما ان تسمية « العرب »

كانت تشمل جميع العرب في الجزيرة وخارجها وكان هذا امراً مفهوم المدى، وكما ان العرب كانت تجمع بينهم جنسية واحدة هي « العربية » فكذلك كانت اللغة العربية القرآنية لغة جميع العرب في الجزيرة وخارجها

وفي القرآن مستند وتأييد لهذا القول ايضاً . ففيه عدا الآيات التي اوردناها آيات عديدة اخرى تلهم انها اكثر شمولا واطلاقا :

١ — وكذلك انزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون او يحدث لهم ذكرا . طاها ١١٣

٢ — ولقد ضربنا للناس في هـــذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون . قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون . الزمر ٢٨—٢٩

٣ — وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لتنذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين . الاحقاف ١٢

ولقد كان من المتواتر الذي بلغ حد اليقين :

اولا — ان النبي (ص) كان يتصل بمختلف الطبقات والشخصيات المكية ، ثم بمختلف الطبقات والشخصيات والقبائل التي كانت تفد على مكة في المواسم والاسواق ، ويتحدث اليهم ويتلو عليهم آيات القرآن ويتفاهم معهم بلغته التي هي لغة القرآن بطبيعة الحال ؛ ومن المتواتر ان مواسم الحج واسواقه لم تكن قاصرة على اهل الحجاز ؛ وخاصة قبيل البعثة النبوية ، بل كان يفد اليها العرب من انحاء عديدة من غير الحجاز ايضاً ؛ ومنهم نصارى العرب من تغلب واياد وكلب وغيرهم

ثانيا — ان وفود العرب مشركين ونصارى ومجوساً كانوا يفدون (ص) الى المدينة بعد الهجرة النبوية . ولا سيما بعد انتصاراته وانتشار اسمه وكلمته من اليمن ونجد والاحساء والبحرين والعراق والشام وفلسطين بل ومن حضرموت ؛ فكان النبي (ص) يتلو عليهم آيات القرآن ، ويتخاطب معهم هو واصحابه الحجازيون — المهاجرون والانصار — بلغتهم التي هي القرآن بصورة عادية وطبيعية ، وانه كان يرسل معهم قراء من

كبار صحابته الحجازيين ليعلموهم القرآن ، ويفقهوهم في الدين ، ويتولوا امر القضاء بينهم ، وجباية الزكاة منهم وتوزيعها على فقرائهم ، وانه كانت تكتب لهم الرقاع والعهود والوصايا والتشريعات بنفس هذه اللغة ؛ ولم ترد رواية ما تفيد انه كان تراجمة بين النبي (ص) وبينهم (١) .

ثالثا — انه كانت اتصالات مستمرة بين اهل الحجاز من ناحية وبين العرب في انحـــاء الجزيرة الاخرى وفي بلاد الشام والعراق ، بدوهم وحضرهم قبل البعثة ؛ وسواء في مواسم الحج في الحجاز ، او في رحلات التجارة وغيرها الى اليمن والعراق والشام من ناحية ثانية ؛ وانهم كانوا يتفاهمون ويتخاطبون بلغة واحدة ومادام الحجازيون طرف في هذا فان لغتهم في هذه الاتصالات هي اللغة الحجازية وهي اللغة القرآنية

هذا من جهة ؛ ومن جهة ثانية فقد ورد في القرآن تعبير « اعجمي » لغير اللغة العربية مقابل تعبير « عربي » للغة العربية مما اوردناه سابقاً فهذا الجزم في اعتبار وتسمية اللغات غير العربية « اعجمية » يؤيد أن اللسان الذى كان يتكلم به العرب هو واحد غير متعدد اجمالا وهو لغة القرآن مادمنا نعرف معرفة يقينية انها هي لغة النبي (ص) واهل بيئته . ولو كان للعرب في عصر النبي (ص) لغات عديدة فيها تغاير جوهري لما كان هذا الجزم.

وما روي عن انه كان لبعض القبائل بعض التعابير والاستعمالات والمصطلحات والحروف والاهجية المغايرة بعض الشيء للغة قريش او اللغة القرآنية ليس من شأنه ان ينقض مانقول او يقف دليلا على وجود تغاير في لغة العرب في عصر النبي (ص) يمكن ان يحتمل معنى تغاير لغوي كبير او يحتمل تعبير « لغات متباينة » كما نفهمه من تباين اللغتين العربية والسريانية اللتين هما شقيقتان في الاصل او ما يقرب من ذلك .

واننا لنستطيع ان نقرر ان كل كلمة جاءت في القرآن وكل معنى ورد فيه وكل تعبير استعمل فيه حقيقي او مجازي وديني او اجتماعي او تاريخي او اقتصـادي او

---

(١) وننبه على ان هذا ينطبق على اهل اليمن ؛ وان الذين قالوا ان لغة اليمن في عصر النبي (ص) على الأقل كانت غير لغة الحجاز قد وقعوا في الوهم .

معاشي او علمي او فلسفي كان العرب يفهمونه ويستعملونه من حيث الاجمال ، وانه لا يعقل ان تكون فيه كلمات او تعابير لم ينطق بها العرب او لم يستعملوها قبل نزوله — بقطع النظر عن السعة والضيق — بعد تلك النصوص القرآنية القاطعة ، ولا سيما بعد تعبير « أعجمي » لغير اللسان العربي مقابل « عربي » للدلالة على اللغة العربية وكذلك بعد الشواهد والبراهين التي اوردناها .

— ١٨ —

وما نقل عن ابن خالويه من ان العرب لم يعرفوا او يستعملوا كلمة فاسق او ماقاله غيره عن كلمة النفاق او غيرهما عن مافي القرآن من كلمات اعجمية ترد لاول مرة فيه لا يمكن ان يعقل ولا يمكن بالتبعية ان يصدق . ويكفيك ان تعرف ان كلمة الفسق ومشتقاتها قد وردت في نحو خمس وخمسين آية مكية ومدنية وان كلمة النفاق ومشتقاتها قد وردت في نحو ثلاثين آية من جملتها آية مكية لتعرف تفاهة مثل هذه الاقوال وقيمتها . يضاف الى هذا كله طبيعة مهمة النبي (ص) التي تقوم على مخاطبة طبقات الناس والقبائل وتلاوة القرآن عليها مما لا يمكن ان يتسق مع عقل ومنطق وحكمة ان يكون ما يتلوه عليهم ، وهو دعامة نبوته ومعجزتها الكبرى بغير اللغة التي يفهمونها بتراكيبها ومفرداتها بل ولا في مستوى اعلى كثيراً من مستوى افهام المتوسطين منهم .

وهذا نقوله تفنيداً لما قاله بعض القدماء من ان لغة القرآن كانت أعلى من مستوى الافهام ، ولما قاله بعض المحدثين من المستشرقين وغير المسلمين خاصة من أن الذين آمنوا انما آمنوا لفصاحة القرآن اللغوية وسمو طبقته ، حيث كانت هذه الصفات فيه مما تبهر سامعيه ، ونذكر الذين قالوا القول الاخير خاصة بأن من المؤمنين الاولين في مكة من قد امن بالنبي (ص) على أثر الدعوة وقبل ان تُعد الآيات او السور الصغيرة النازلة على الاصابع ، وان جلهم قد أمن قبل منتصف العهد المكي ، وان القرآن يذكر ان الكتابيين الذين آمنوا بالقرآن والنبي (ص) انما امنوا لما فيه من الحق والروحانية كما ترى في الآيات التالية :

٢ — واذا سمعوا ما أُنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما

عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين المائده ٨٣

١ — وأن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما انزل اليهم خاشعين لله لايشترون بآيات الله ثمناً قليلا ... آل عمران ١٩٩

٣ — «والذين اتيناهم الكتاب يفرحون بما انزل اليك ... الرعد ٣٦

٤ — « قل آمنوا به اولا تؤمنوا ان الذين أوتو العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجداً . ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولاً .... الاسراء ١٠٧/ ١٠٨

٥ — الذين اتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين ...

القصص ٥٢/ ٥٣

وان اكثرية المكيين الساحقة ثم أكثرية الحجاز الساحقة ثم أكثرية العرب الساحقة قد ظلت جاحدة طيلة العهد المكي واكثر العهد المدني ، وقد سلخ النبي (ص) ثلاثة عشر عاماً في مكة يتلو القرآن على أهلها وعلى العرب وأسلوب القرآن المكي خاصة شديد الروعة ليعرفوا مافي قولهم من وهن.

— ١٩ —

وواضح ان مانقوله ليس فيه مايقلل من سمو طبقة لغة القرآن وفصاحته وبلاغته الرائعة النافذة التي لايمكن ان تحمل كلاماً ولا ريباً ، كما انه لايمنع ان يكون في القرآن مفردات غير عربية أو غير قرشية اللهجة ، بل نحن نعتقد بوجود ذلك ، غير ان مما لانشك في كونه الحق هو ان الكلمات المعربة قد عربت وأصبحت جزءاً من اللغة العربية قبل الاسلام ، وان الكلمات او اللهجات غير القرشية قد دخلت في اللغة القرشية التي اصبحت لغة القرآن قبل الاسلام ايضاً ، وانه ليس من شأن هذا وذاك ان يمتنع معهما على السامعين من غير قريش تذوق وفهم المفردات التي من هذا القبيل او مدلولاتها اجمالاً او تفصيلا ، وهذا كذلك مع

التسليم بأحتمال وجود طبقات من العرب في كل بيئة في عصر النبي (ص) حتى من القرشيين أنفسهم لم تكن مداركها تصل الى فهم كل معاني القرآن او لم تكن تستعمل او لم تكن تسمع بجميع الفاظ وتعابير وتراكيب القرآن . ومع التسليم ايضاً بأحتمال من كان يتكلم بلهجات غير لهجة القرآن من قبائل العرب بل ومتحضريهم من سكان المناطق البعيدة عن مكة ، او يستعمل تعابير والفاظاً وحروفاً ومصطلحات ليست من تعابير والفاظ وحروف ومصطلحات اللغة القرآنية مما هو طبيعي متسق مع بدائة الامور ، وليس مما يتناقض مع مدى وجوهر مانقرره ايضاً .

وكما قلنا انه ليس من السهل او الامكان تحديد الوقت الذي اصبح اسم العرب فيه عاماً مشتركاً ومستقراً للجنس العربي فاننا نقول هنا انه ليس من السهل والامكان تحديد الوقت الذي أصبحت فيه اللغة العربية القرآنية لغة عامة ومشتركة ومستقرة لجميع العرب . ولكن من الحق ان نقول انه ليس من الضروري ان يرجع هذا الوقت الى ذلك الامد الطويل الذي يقتضى ان ترجع اليه تسمية « العرب » على ماشرحناه في البحث السابق . فان اللغة لايمكن ان تكون لغة تخاطب عامة مشتركة بين سكان الانحاء والبيئات المتباعدة تباعداً شاسعاً الا بعد تقارب وتواصل عامين ومستمرين وهو مالا سبيل الى التيقن منه الى زمن طويل جداً . ولكنا نستطيع ان نقول ان هذا الاشتراك قد اخذ يقوى ويستقر قبل البعثة النبوية بعوامل تلك النهضة التي نشطت آنذاك ، والتي تلمس في مظاهر وتقاليد كثيرة في حياة العرب ، والتي نرجح انها كانت رد فعل لغزو الأحباش لليمن ثم للحجاز . وانه لمن المعقول ان يكون لهذه الحركة وللأسفار التي تزايدت بعدها بين مختلف انحاء الجزيرة وبين هذه الانحاء واطراف الجزيرة في الشام والعراق ، ولاشتداد ارتباط العرب بالبيت الحرام والحج ، وللأسواق التي كانت تقام في مواسم الحج ، والتي كان يفد اليها والى الحج من بعدها كثير من العرب من مختلف الانحاء في ظل

هدنة الاشهر الحرم العامة أثر أولا في انتشار اشتراك اللغة وتوحدها وثانياً في تصفيتها وتهذيب حواشيها حتى وصلت في عهد البعثة النبوية الى الطبقة السامية التي نزل بها القرآن الكريم .

على ان الاشارة الى العربية والعجمية ، وما يمكن ان تحتويه من مفهوم اطلاق العربية على اللغة التي كان يتكلم ويتفاهم بها العرب على اختلافهم ، وتفريقها عن اللغات الأعجمية التي كان يتكلم ويتفاهم بها غير العرب يمكن ان تساعد على القول بأن سيادة اللغة القرآنية ترجع الى أمد غير قصير قبل البعثة اولا ، وعلى القول بانه لايكون مجال للاستغراب ولا الانكار اذا كنا نرى الشعراء الجاهليين من عدنانيين وقحطانيين ، ومضريين وربيعيين ينظمون أشعارهم بلغة واحدة ثانياً ، لاسيما اذا كانت حياة هؤلاء الشعراء لاتذهب في القدم كثيراً كما هو المروى عنهم .

الفصل الثاني

الحركة الاقتصادية و المعاش

نشاط مكة التجاري وسعته — اسفار تجار مكة الى مختلف الاقطار — اثر الكعبة والحج في نشاط مكة التجاري — نشاط المدن الاخرى التجاري — الربا في الحجاز — النقد — الذهب والفضة — الأعداد والحساب — المكاييل والأوزان — النشاط الزراعي وسعته — اثر اليهود المحتمل فيه — النشاط الصناعي — آيات القرآن في صدده — دلالة الآيات على وجود صناعات كثيرة وصناع متنوعين في الحجاز — اثر الجاليات الاجنبية في هذا النشاط — نصيب المرأة في النشاط الاقتصادي — معايش العرب — ترف بعض الطبقات نتيجة للنشاط الاقتصادي — دلائل وقرائن قرآنية — الأنعام وخطورتها في معايش العرب — عناية القرآن بها ودلالتها — اشتغال الحضر والبدو بها — الصيد واثره في معايش العرب — استلهامات قرآنية في فنون الصيد وعادات العرب فيه — ما تلهمه الآيات في الاطعمة ومحرماتها وانواعها — ما تلهمه الآيات عن الشراب والخمر وانواعها ومجالسها — ماتلهمه الآيات عن عادات الميسر واثره — ما تلهمه الآيات في السمر والغناء — ماتلهمه الآيات في المساكن والاثاث — ما تلهمه الآيات في الكساء والازياء — ما تلهمه الايات في الحلي والتبرج — ما تلهمه الآيات في الاسلحة وفنون الحرب .

الحركة الاقتصادية

— ١ —

ان ما ذكرناه في الفصل السابق من مظاهر الحركة الاقتصادية انما كان بسبيل وصف المدن الحجازية ومظهرها ولم يكن من شأنه الالمام بهذه الحركة المامًا كافيًا كما هو واضح ؛ وهذا ما سوف نحاوله في هذا البحث.

ان من البديهي ان لا تشذ مدن الحجاز وقراها عن حياة المدن والقرى الاستقرارية التي تحمل الاعمال الدائمة وتتلازم مع الاعمال الزراعية والصناعية والزراعية .

والواقع ان في القرآن آيات كثيرة يستطاع الاستدلال بها على اشتغال اهالي الحجاز وقراه بهذه الاعمال اولا ، وعلى المدى الذي وصلوا اليه فيها .

النشاط التجاري

— ٢ —

فاهل مكة لم يستطيعوا ان يتعاطوا الاشغال الزراعية لجدب تربتهم وشح مياههم ، فاستعاضوا عنها بالضرب في مناكب الارض ، وشد الرحال للاسفار التجارية في الصيف والشتاء والبر والبحر ، يتوسطون في نقل السلع ومبادلتها بين الاصقاع الجنوبية والشمالية والشرقية اي اليمن والشام والعراق وفارس ومصر والحبشة وسواحل افريقية والهند من جهة ،ويشترون ما تحتاج اليه بيئتهم من السلع والعروض من جهة ثانية (١) . والذين لم يكونوا يرحلون كانوا يشاركون الراحلين ، او يستأجرون من يسافر لحسابهم ويتجر لهم ، وكانت هذه الحركة غير قاصرة على الاغنياء ، بل كان يساهم فيها المتوسطون ايضاً . فسورة قريش على ايجازها تنطوي على اشارة الى ما كان من نشاط اهل مكة العظيم في هذا المضمار اذا ما انعم النظر فيها .

---

(١) أن آية القصص ٥٧ تتضمن اشارة الى هذا المعنى حينما يمعن النظر فيها ايضا .

والآيات التي استدللنا بهـا على ماكان لاهل مكة من ثروات تلهم بطبيعة الحال ان هذه الثروات انمـــا توفرت لهم بفضل النشاط الاقتصادي الذي كانوا يقومون به ، والذى كان يتمثل في الدرجة الاولى في الحركة التجـارية الدائمة . والآيات التى اوردناها في صدد ذكر المنطقة الساحلية تدل كذلك على نشاط اهل مكة — لانها مكية ولان اول المخاطبين بها اهل مكة ولان فيها ملهيات باسفارهم البحرية بالذات — التجاري البحري ، ومدى اتساع افقهم في الاعمال والمجازفات التجارية .

ولعل من مؤيدات اتساع هـذا الافق والنشاط التجاري البحري الهجرة الاولى التي قام بها المسلمون الاولون من مكة الى الحبشة والتي اشير اليها في آيتين من سورة النحل :

١ — والذين هاجروا في الله من بعد ما ظُلموا لنبوئنّهم في الدنيا حسنة
النحل ٤١

٢ — ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا .
النحل ١١٠

فانه ليس من المعقول ان يهاجر المكيون الى بلد لم يكن معروفا عندهم اوعندبعضهم. وهذه المعرفة تدل على ان هذه البلاد كانت من البلاد التي اتصل بها المكيون في في اسفارهم التجارية البحرية .

وهناك آيات تدل على اسفارهم الى الجنوب حيث بلاد اليمن وحضرموت ومساكن عاد الاولى ، والى الشمال حيث بلاد ثمود ولوط اي طريق الشام وبلاد الشام والبلقاء وفلسطين ؛ فقد جاء في سورة الصافات :

« وإنّ لوطاً لمن المرسلين . اذ نجيناه واهله اجمعين . ألا عجوزاً في الغابرين . ثم دمرنا الآخرين . وانكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل افلا تعقلون .
١٣٤ — ١٣٨

وخرائب بلاد لوط هي على ضفاف بحيرة لوط في غوراريحا قرب بيت المقدس وهي المشهوره بخرائب سدوم وعمورة ، والتي مازالت موجودة الى الآن .

وقد جاء في سورة العنكبوت :

« وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين . ٣٨

هذا بالاضافة الى صيغة آيات عديدة اخرى تلهم انها تخاطب اناساً يعرفون معرفة عيان ما يخاطبون به وبالتالي تلهم ان المخاطبين وهم المكيون في الدرجة الاولى قد زاروا الاماكن والآثار التي تضمنت الآيات الاشارة اليها كما ترى في الامثلة الآتية :

١ — فكأيّن من قرية اهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد . افلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يفقهون بها او آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكنها تعمي القلوب التي في الصدور . ٤٥ — ٤٦ الحج

٢ — ولقد اتوا على القرية التي أُمطرت مطرَ السّوْء (١) أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشوراً الفرقان ٤٠

٣ — اولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا اشد منهم قوة واثاروا الارض وعمروها اكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون . الروم ٩

٤ — الم تر كيف فعل ربك بعاد . ارم ذات العماد . التي لم يخلق مثلها في البلاد . وثمود الذين جابوا الصخرَ بالواد . وفرعون ذي الاوتاد . الذين طغوا في البلاد . الفجر ٦ — ١١

ويلفت النظر الى مضامين الآيات حيث تلهم ان الاماكن المذكورة كانت في بلاد نائية عن مكة وكانت عامرة او صالحة للعمران حيث فيها القصور المشيدة ، والآثار العمرانية الكثيرة الدالة على القوة والبأس ، والتي كانت تتفوق في عمرانها وقوتها مدينة مكة تفوقاً كبيرا . ولعل في وصف فرعون بذي الاوتاد دلالة على

---

(١) المقصود منها خرائب بلاد لوط ايضاً التي كان المكيون يشاهدونها في رحلاتهم .

مشاهدة عيانية لمصر واهراماتها التي يرجح ان الاوتاد قد عنتها . ولمصر وصف آخر هو من اوصافها الدائمة ، ويلهم انه مما شاهده المكيون المخاطبون :

١ — « ونادى فرعون في قومه قال ياقوم اليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتي افلا تبصرون . الزخرف ٥١

٢ — « فاسر بعبادي ليلا انكم متّبعون . واترك البحر رهواً انهم جند مغرقون . كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين ٢٣ — ٢٧ الدخان

— ٣ —

كذلك هناك آيات يمكن ان يستدل منهـــا على ما كان في وجود الكعبة ومناسك الحج في مكة ، وفي هدنة الاشهر الحرم من مجال لنشاط اهل مكة التجاري او من حافز قوي لهذا النشاط . منها هذه الآية :

« جعل الله الكعبةَ البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدْي والقلائد المائدة ٩٧

حيث تقرر ان الله جعل هذه الاماكن والمناسك والشعائر وسيلة ليقيم الناس أودهم ، ويقضوا حاجاتهم ومصالحهم ، ويحصلوا على معاشهم ؛ اذ ان كل هـــذا متضمن في جملة « قياماً للناس » اي فيه قوام حياتهم .

ولقد كانت اشهر الحج اشهرا حرما — يحرم فيها القتال — فكان العرب يغتنمون فرصة هذه الهدنة المقدسة فيشدون الرحال الى مكة من كل صوب ، وكانت تقام بهذه المناسبة قبل ايام الحج وبعده اسواق تجارية في المنفسحات وعند المياه القريبة من مكة ، فينزل فيها الحجاج ، ويلبثون اياماً يقضون فيها حاجاتهم ، ويتبادلون سلعهم ، ويبيعون ويشترون ، ويتعارفون ويتسامرون . وهذا مما يمكن ان يستلهم من آيات سورة البقرة الآتية :

« الحج اشهرٌ معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقون يا اولي الالباب . ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلاً من ربكم . ١٩٧—١٩٨

وقد روى المفسرون والرواة ان ابن عباس كان كلما قرأ هذه الآيات الحق جملة « في المواسم » بعد كلمة « ربكم » كأنما كان يفسر المقصود بها حتى ظن ان الجملة من نفس الآية . وقد قالوا في تفسير الآيات ان المسلمين تحرجوا من تعاطي التجارة والتكسب في اسواق الحج كما كانوا يفعلون قبل الاسلام فسوغت لهم الآية الثانية ذلك ، وتعبير « ان تبتغوا فضلا من ربكم » ومشتقاته في القرآن هو كناية عن السعي في اسباب الرزق واكتسابه . ولعل الآية الاولى الهمت المسلمين التحرج ، فنزلت الآية الثانية بالتسويغ والاذن . وعلى كل فالآية تلهم كما قلنا ان الناس كانوا يغتنمون فرصة موسم الحج للبيع والشراء ، وبالتالي انه كان يجري في هذا الموسم حركة تجارية واسعة . ولعل جملة « ليشهدوا منافع لهم » الواردة في احدى آيات سورة الحج :

وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في آيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا « البائس الفقير . ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطّوفوا بالبيت العتيق ... ٢٧ / ٢٩

تلهم قيام هذه الحركة وانتفاع الناس بها بالاضافة الى ماتلهم الآية الاولى من قدوم الناس من كل صوب الى مكة في موسم الحج والانتفاع بمواسمه مما يؤيد ماذكرناه آنفاً .

ولقد روى المفسرون عن ابي عباس في صدد . آية البقرة (١٩٨) انه كانت تقام في اشهر الحج اسواق هي اسواق عكاظ ومجنة وذي المجاز ، وجميعها قريبة من مكة ، والاخيرة قريبة من عرفات ، وان العرب كانوا يتجرون فيها ، وكانوا يقيمون في الاولى عشرين يوماً من ذى القعدة ثم ينتقلون الى الثانية فيقيمون فيها ثمانية عشر يوماً ثم يخرجون الى عرفات حيث تقام السوق الثالثة قربها .

فمن الطبيعي ان يجد أهل مكة في هذه المواسم والاسواق مجالا واسعاً للتجارة ، وان يستعدوا لها في سائر شهور السنة ، يضربون في مناكب الارض براً وبحراً ، شمالا وجنوباً وشرقاً . صيفاً وشتاءً ، ويغتنمون الفرصة فيحملون من بعض البلاد

مايروج في البلاد الاخرى من السلع والعروض .

— ٤ —

واذا كنا صرفنا ماتقدم من القول الى مكة وأهلها فلا يعني هـذا ان المدن الحجازية الاخرى كانت في عزلة عن ذلك .

فالموانيء من حركة البحر حافز ومرتزق طبيعيان لاهلها ، ومما لاريب فيه أن سكانها كانوا يقومون بالاسفار ويضربون في عرض البحار ، وينتفعون بصيدها ، ويستخرجون لآلأها وخيراتها ، ويصلون بسفنهم الكبيرة والصغيرة الى الموانيء والثغور الاخرى في سواحل البحر الاحمر وغيره ، يحملون منها واليها السلع المتنوعة ، ان لم نقل انهم هم الذين كانوا الرئيسيين في هـذه الحركات والنشاط . واذا كانت الآيات المكية في اسفار البحر والتكسب فيها قد عنت أهل مكة فمن باب اولى ان يكون اهل موانيء الحجاز ممن شملتهم هذه الاشارات ودخلوا في نطاق النشاط الذي انطوى فيها .

ويثرب والطائف وان كانتا في الاغلب تعيشان على غلات الارض والبساتين والكروم ، وكانت خصوبة التربة تغنيهم عن الضرب في مناكب الارض ابتغاء الرزق بوجه الاجمال ، فان من تحصيل الحاصل أن يقال ان طبيعة كونها مدينتين ، وحولها القرى والاعراب لابد من ان تجعل فيها حركة تجارية ، وان يكون فيها كثيرون قد تفرغوا للأعمال التجارية . ولقد وردت آيات مدنية عديدة فيها بعض الاوامر والنواهي والتشريعات مما يمكن ان يلهم انه كان في المدينة حركة تجارية غير ضعيفة ، ولا يرد ان تكون هذه الحركة او القوة فيها قد وجدت بعد الهجرة النبوية كما لايخفى . واليك الآيات :

١ — ... ولا تسأموا ان تكتبوه صغيراً او كبيراً الى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا ألا ان تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها .... البقرة ٢٨٣

٢ — « قل ياايها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا ان تكون تجارة عن تراضٍ منكم .... النساء ٢٩

٣ ــ « قل ان كان آباؤكم وابناؤكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره .... ٢٤ التوبة

٤ ــ « رجال لاتلهيهم تجارة ولا لهو عن ذكر الله وإقام الصلاة وايتاء الزكاة .... النور ١٦

٥ ــ « ياايها الذين أمنوا اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم أن « كنتم تعلمون . فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون . واذا رأوا تجارة او لهواً انفضوا اليها وتركوك قائماً قل ماعند الله خير من اللهو والتجارة والله خير الرازقين ... الجمعة ٩/ ١١

ولقد كانت المدينة كما قلنا طريق القوافل التجارية المكية ، ومن المستبعد ان يبقى تجارها في غفلة عن الاسفار التجارية مثل أهل مكة : ولقد كان في المدينة كما قلنا جالية اسرائيلية كبيرة ، ومن المستبعد ان لم نقل من المستحيل ان لاتكون قد ضربت بسهم وافر في النشاط التجاري في الحجاز عامة وفي المدينة خاصة ، وسواء كان بالرحلات التجارية او في الاسواق المحلية والموسمية ، ومن الراجح ان يكون العرب في المدينة قد سايروهم في نشاطهم هذا على اختلاف نواحيه ان لم نقل من المحقق .

وشيء مما قلناه ينطبق في مانعتقد على مدينة الطائف ايضاً ، لاسيما وقد كانت هي الاخرى على طريق العراق واليمن التجارية ، وكان أهلها على صلة وثيقة بأهل مكة ومنطقتها واسواقها المحلية والموسمية بالنظر الى قرب المدينتين من بعضها .

— ٥ —

ولعل مما يتناسب مع الكلام أن يذكر الربا ؛ لأنه مظهر من مظاهر الحركة الاقتصادية والتجارية. ولقد وردت آيات عديدة يمكن الاستدلال بها على ان أهل مدن الحجاز العرب واليهود على السواء كانوا يتعاطونه ، وعلى انه كان راسخاً عندهم يعوّلون عليه تعويلاً كبيراً في تنمية ثرواتهم كما ترى في الآيات التالية :

١ — الذين يأكلون الرّبا لا يقومون إلاّ كما يقوم الذي يتخبطُه الشيطانُ من المسّ ذلك بأنهم قالوا إنما البيعُ مثل الربا وأحلّ الله البيعَ وحرّم الربا ... ٢٧٧ البقرة

٢ — يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا أن كنتم مؤمنين فأن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله فأن تُبتم فلكم رؤسُ أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون ... ٢٧٩ البقرة

٣ — يا ايها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفةً واتقوا الله لعلكم تفلحون ... ١٣١ آل عمران

٤ — فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلّت لهم وبصدّهم عن سبيل الله كثيراً . وأخذهم الربا وقد نُهوا عنه وأكلهم أموالَ الناس بالباطل ... ١٦٠ — ١٦١ النساء

٥ — وما آتيتم من ربا ليربُو في أموال الناس فلا يربو عند الله ... ٣٩ الروم

وآية الروم مكية ، فهي والحالة هذه موجهة إلى أهل مكة خاصة ؛ والآيات الاولى مدنية . غير ان من المروي ان آيات البقرة من اواخر ما نزل من القرآن وبعبارة أخرى قد نزلت بعد الفتح المكي ، واذا صح هكذا فتكون الحملة التي تضمنتها موجهة ضد المرابين المكيين ايضاً . ومن المروي ان النبي عليه السلام اعلن في حجة الوداع اسقاط ربا عمه العباس وكان من اغنياء وتجار مكة . على ان هذا لا يعني ان لا يكون أهل المدينة العرب قد تعاطوه كما نصت أية النساء بصراحة على تعاطي اليهود له ؛ فهم واليهود في مدينة واحدة ، ولا بد من انهم اقتبسوه منهم بالاضافة الى كونه من مستلزمات الحركة الاقتصادية والتجارية التي لم يكونوا في عزلة عنها . والى هذا فان آية آل عمران قد نزلت قبل الفتح المكي ، والنهي فيها موجه الى المسلمين في المدينة بطبيعة الحال .

والآية ٢٧٩ شديدة الانذار ؛ مما يدل على رسوخ الربا رسوخاً شديداً كما قلنا وعلى كونه يشغل حيزاً خطيراً من حياة المدن الحجازية الاقتصادية . وآيات البقرة وآل عمران قوية أيضاً وتلهبان هذا كما هو المتبادر .

— ٦ —

كذلك مما يتناسب مع الكلام ان نذكر النقد الذي كان دارجاً . وفي القرآن بعض آيات في هذا الصدد :

١ — ومن أهل الكتاب من أنْ تأمنه بقنطار يُؤده اليك ومنهم أن تأمنه بدينار لا يؤده اليك ألا ما دمت عليه قائماً ... ٧٥ آل عمران

٢ — وشروه بثمنٍ بخسٍ دراهمَ معدودةٍ وكانوا فيه من الزاهدين ... يوسف ٢٠

فورود اسمي النقدين الذهبي والفضي والمعروفين يقيناً انهما اسمان لسكة مضروبة دارجة في بلاد الشام والعراق ومصر ولو في العرض الذي جاءا فيه يجعل من السائغ الجزم بالاستدلال القرآني بانهما كانا معروفين على هذا الوجه في عصر النبي عليه السلام وبيئته قبل البعثة ، وانهما كانا دارجين فيها . ومن تحصيل الحاصل ان نقول انهما لم يكونا اسمين لنقدين حجازيين مقتبسين اقتباساً ؛ لأنه لم يكن في الحجاز دولة لها سكة خاصة ؛ وان الدارج في الحجاز انما كان الدرهم والدينار الاجنبيين ؛ ولعل في هذا دلالة على مقدار ما كان من سعة الصلاة التجارية بين الحجاز وبلاد الشام ومصر والعراق ايضاً . وليس من غير المحتمل ان يكون تجار الحجاز وأغنيائهم كانوا يستصنعون لحسابهم فى دور الضرب العراقية والشامية الدراهم والدنانير ؛ لا سيما والتاريخ الاسلامي يعلمنا ان هذه العادة كانت جارية في عهد الأمويين والعباسيين .

— ٧ —

هذا ولقد ذكر الذهب والفضة في القرآن في مناسبات عديدة . منها ما جاء على سبيل الأشارة اليها كثروة محببة محروص عليها وذلك في آية آل عمران ١٤ التي نقلناها سابقاً . ومنها الآية التالية :

والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم ... التوبة ٣٤

وقد جاء ذكرهما مراراً في معرض استعمالهما حلياً وأوانيفي الدنيا وفي الآخرة

كما نرى في الآيات التالية :

١ — يُحلّوْن فيها من أساور من ذهب ... الكهف ٣١
٢ — فلولا أُلقيَ عليه أسوِرَةٌ من ذهب ... الزخرف ٣١
٣ — يُطاف عليهم بصحافٍ من ذهب وأكواب ... » ٧١
٤ — ويُطاف عليهم بآنيةٍ من فضة وأكواب ... الانسان ١٥
٥ — وحُلوا أساورَ من فضة ... ٢١

فهذا وذاك يدلان على أن أهل بيئة النبي (ص) وعصره كانوا ينظرون الى هذين المعدنين كمقياس للثروة والغنى والترف، وكانا عندهما من المحبب والمحروص عليه شأنهم في ذلك شأن البيئات المجاورة او بالاحرى البيئات المتحضرة في ذلك اطلاقاً.

وهذا ينقض ما قاله بعض الكتاب من أن العرب لم يكونوا يعرفون الذهب او كانت معرفتهم بالفضة اوسع من معرفتهم بالذهب كما هو ظاهر .

— ٨ —

ولقد ذكر في القرآن انواع الأعداد من مضاعفات وكسور ، من أحاد وعشرات ومئات وألوف وعشرات الالوف ومئات الالوف ، ومن نصف وثلث وربع وخمس وثلثين وسدس وثمن وعشر ومعشار كما ترى في الآيات التالية :

١ — للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر ... البقرة ٢٢٦
٢ — والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ... » ٢٢٧
٣ — يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً » ٢٣٤
٤ — كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مأة حبة ... » ٢٦١
٥ — قال بل لبثت مأة عام... » ٢٥٩
٦ — ألن يكفيكم ان يمدكم ربكم بثلاثة الاف من الملائكة منزلين . آل عمران ١٢٤
٧ — فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ... النساء ٣
٨ — يوصيكم الله في اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ماترك وان كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك أن كان له ولد فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث

فان كان له أخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها اودين ... النساء ١١

٩ — ولكم نصف ماترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فأن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ولهن الربع مما تركتم أن لم يكن لكم ولد فأن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين وان كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ او أخت فلكل واحد منها السدس فأن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين ... النساء ١٢

١٠ — قال فأنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض ... المائدة ٢٦

١١ — واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ... الانفال ٤١

١٢ — ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبون مأتين وان يكن منكم مأة يغلبوا الفاً ... الانفال ١١ ٦٥

١٣ — سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ... الكهف ٢٢

١٤ — وارسلناه الى مأة الف او يزيدون ... الصافات ١٤٧

١٥ — في يوم كان مقداره خمسين الف سنة ... المعارج ٤

ونعتقد ان هذا منتهى معروفاً في العالم اذ ذاك ، وفيه دلالة على سعة العمل والأفق والصلات ؛ كما فيه نقض لما حاوله بعض الكتاب من تعميم جهل العرب لما فوق الالف بسبب رواية متهافتة في حد ذاتها . (١)

---

(١) الرواية هي انواحداً من المسلمين سمع النبي يبشر بفتح العراق فاستوهبه بنت عظيم الحيرة وكانت مشهورة بالجمال فوهبها له . فلما فتحت الحيرة جاء الرجل الى القائد وأشهد على هبة النبي فنفذ القائد الهبة . ولما دخل الرجل عليها وجدها عجوزاً فقالت له وما تريد من عجوز فدعني اشتر نفسي فوافق فقالت له اطلب ماتريد فقال الف درهم فنقدت له ولما خرج لامه رفاقه فقال ما علمت فوق الألف شيئاً . وتهافت الرواية خاصة من ناحية عدم معقولية جهل الرجل لما فوق الالف مع ان-

وفي الآيات التي نقلناها ما يلهم ان العرب كانوا يعرفون الأعمال الحسابية من ضرب وقسمة وجمع وطرح اذا ما أنعم النظر فيها وخاصة في ما جاء في صدر الارث

— ٩ —

اما المكاييل والاوزان التي كانت مستعملة في عمليات البيع والشراء في بيئة النبي (ص) وعصره — وعلاقها بالحركة التجارية معروفة — فان القرآن لم يذكر منها بالتعيين الا القنطار والذراع على غموض في مقدارهما كما جاء في آيتي آل عمران (١٤ و ٧٥) . اللتين نقلناهما سابقا . واية سورة الحاقة التالية :

« في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » ٢٣

وقد ذكر الميزان والكيل والقسطاس في مناسبات اكثرها جاء في معرض الحث على الامانة والاستقامة في الوزن والكيل كما ترى في الآيات التالية :

١ — واوفوا الكيل والميزان بالقسط . الانعام ١٥٢

٢ — واوفوا الكيل والميزان اذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم. الاسراء ٣٥

٣ — واقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان . الرحمن ٩

٤ — ويل للمطففين . الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون . واذا كالوهم او وزنوهم يخسرون . المطففون ١—٣

وتدل هذه الايات على انه كان في بيئة النبي (ص) وعصره مكاييل وموازين متنوعة وان لم يمكن الاستدلال على مقاديرها وانواعها بالتحديد ، وانه كانت موازين غير مضبوطة واخرى مضبوطة ، وانه كان يتبع اثناء استعمال الموازين والمكاييل حيل معروفة مشهودة . ولعلنا لا نجوز اذا قلنا ان تكرر التوصية القرآنية يدل من ناحية ما على فشو هذه الحيل في الاوساط التجارية ، وعلى سمة الحركة التجارية نفسها ايضاً . ومن ايات في سورة القارعة :

يبدو انه قد ساح وتقلب في مختلف البلاد وربما كان تاجراً كما ان القرآن المكي قد احتوى ذكراً للخمسين ألفاً والمأة الف ولا يعقل ان لا يكون الرجل قد علم ذلك، والرواية مروية عن العهد المدني . هذا بالاضافة الى وهن التعميم لأن الرواية نفسها تذكر أن رفاق الرجل لاموه اي انهم لم يكونوا يجهلون لما فوق الالف .

« فاما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية . وأما من خفت موازينه فأمه هاوية » ٦—٩

يستلهم ان اساس الميزان عند العرب هو الكفتان كما هو المتعارف في كل مكان وزمان. وقد تعددت الآيات المماثلة في معناها لهذه الآيات فاكتفينا بالذى نقلناه .

النشاط الزراعي

— ١٠ —

ونقول بالنسبة للاعمال الزراعية في المناطق التي جادت تربتها وغزرت مياهها والتي مرت الاشارة اليها أن الاوصاف التي احتوتها الآيات التي نقلناها سابقاً عن الزروع والكروم ، والجنات المعروشات ، والحدائق البهجة ، وانواع الاشجار من اعناب ونخيل وزيتون ورمان وفواكه ، وحب الحصيد ، والزرع ذي الحب المتراكب الخ تدل على ان أهل تلك المناطق قد ضربوا بحظ غير يسير في الاعمال الزراعية والتفنن فيها ، وانهم لم يكونوا في هذا المجال في الطور البدائي الذي يكون قاصراً على الزراعات الموسمية الساذجة .

وفي القرآن آيات غير التي اوردناها سابقاً تحتوي اوصافاً تتصل بالأعمال الزراعية ونتاجها وانواع غلاتها وأن تكن وردت في معرض التشبيه والتمثيل والأخبار فانها يمكن ان تضاف الى تلك الاوصاف وان يستدل بها على ان أهل المناطق الزراعية في الحجاز قد كانوا متقدمين أشواطاً غير قصيرة في مجال الأعمال الزراعية وأنهم شاهدوا وألفو ومارسوا هذه الاوصاف والأسماء ، كما ان وجودها في اللغة العربية القرآنية التي هي لغة بيئة النبي (ص) القربى بنوع خاص دليل على ذلك في حد ذاته ، حيث ان جميع ماجاء في القرآن من أسماء واوصاف ومصطلحات ومعربات كان مألوفاً معروفاً قبل نزول القرآن .

واليك هذه الآيات :

١ — فادْعُ لنا ربك يُخرِجْ لنا ما تنبت الأرضُ من بقلها وقِثائها وفُومها وعدسها وبَصلها ... البقرة ٦١

٢ ــ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مأة حبة ... البقرة ٢٦١

٣ ــ مثل الذين ينفقون اموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من انفسهم كمثل جنة بربوة اصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فأن لم يصبها وابل فطل(١) البقرة ٢٦٥

٤ ــ فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً (٢) ... البقرة ٢٦٤

٥ ــ أيود أحدكم ان تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الانهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها أعصار فيه نار فاحترقت ... البقرة ٢٦٦

٦ ــ وأضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من اعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً . كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً . وفجرنا خلالهما نهراً ... الكهف ٣٣/٣٤ (٣)

فجنات الاعناب التي تكون محفوفة بالنخيل ويكون في ذات الوقت زروع أخرى بينها ، والجنات المعروشات ، والحدائق ذات البهجة ، وتنوع الاشجار المثمرة . والزروع الموسمية من الحبوب الى البقول ـ وكل هذا قد ورد في الآيات المنقولة ـ يمكن ان يقوم برهاناً على ذلك الحظ غير اليسير الذي كان لأهل تلك المناطق في الأعمال الزراعية المتنوعة . ولا بد من ان هذه المناطق كانت تمون مكة والمدن والقرى الأخرى التي لاتستطيع توفير حاجتها الغذائية بنفسها بسبب جدب التربة وشح المياه ، كذلك فأنه لابد من ان سكان البادية كانوا يتناولون من هذه المناطق ماهم في حاجة اليه من غذاء ولاسيما التمر ، وقد لاحظ القاريء من دون ريب كثرة ذكر النخيل في الآيات .

---

(١) الأرض الجيدة التربة تؤتي أكلها ان أصابها وابل اوأصابهاطل : اي رذاذ.

(٢) صفوان ــ صخر ، صلداً ، قاسياً اي ان الوابل يجرف التراب القليل الذي يكون على الارض الصخرية فلا يكون له نفع :

(٣) بعض المفسرين رووا ان هذا المثل لحادث واقعي في اليمن او الحجاز .

ونرجح أنه كان للجاليات اليهودية التي استقرت في الحجاز ولا سيما في يثرب ونواحيها ، وكذلك للأسفار التي كان يقوم بها أهل الحجاز الى بلاد الشام أثر غير يسير في هذا النشاط والتفنن الذي كان يبدو في مناطق الحجاز الزراعيه . فبلاد الشام جيدة التربة ، وفيرة المياه ، متنوعة المناخ ، تصلح لشتى الانواع الزراعية ، وقد كانت متقدمة في الحضارة والعمران على الحجاز ، ومن المعقول ان يكون التفنن بلغ فيها درجة عالية . واليهود جاؤوا الى الحجاز منها على الأرجح بخبرتهم وممارستهم ، فامتلكوا الارضين وعمروها ، وتفننوا في الاعمال الزراعية فيها بما كان لهم من خبرة ومران . وقد أشارت آيات قرآنية نقلناها سابقاً الى ما كان لليهود في يثرب وحواليها من أرض وقرى واموال ونخيل أفاءها الله في النهاية على رسوله .

ولا نستبعد ان اليهود كانوا يستأجرون بعض العمال العرب ، وانه نشأ مع الزمن طبقات من العمال الزراعيين كان لهم أثر في النشاط الزراعي في الحجاز وخاصة في منطقة يثرب ، ولا نستبعد ان يكون كبار المزارعين العرب قد استحضروا بعض الخبراء والعمال الزراعيين من بلاد الشام والعراق واستخدموهم(١) في أراضيهم ومنشآتهم الزراعية ، وان يكون تعلم العرب منهم فنونهم او بعضها ، هذا بالاضافة الى ما يكون أصحاب الارض والاغنياء العرب قد اقتبسوه بأنفسهم سواء في اسفارهم الى بلاد الشام ومصر والعراق واليمن ، حيث كانت هذه البلدان تعنى بالزراعة وتتفنن فيها ، او في ما رأوا اليهود بين ظهر انيهم قد فعلوه واختطوه ، فكان من كل هذا تلك الصورة التي تلهمها الآيات القرآنية للنشاط الزراعي في عصر النبي (ص) وبيئته .

---

(١) في ابن هشام . ج ٢ ص ٣٠ ذكر لرجل من العراق اسمه عداس كان خادماً في بستان لاحد زعماء الطائف . ونحن لا نستبعد ان يكون خبيراً زراعياً جلب او اشترى خصيصاً كما نرجح ان له امثالاً كثيرين .

النشاط الصناعي

— ١٢ —

اما بالنسبة للحركة الصناعية فنقول ان في القرآن المكي والمدني آيات كثيرة احتوت مسميات عديدة ومتنوعة مما هو من وسائل معايش وحياة المدن كما ترى في مايلي :

١ — فلتقم طائفةٌ منهم معك وليأخذوا أسلحتهم ... النساء ١٠١

٢ — ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله ايديكم ورماحكم ... المائدة ٩٧

٣ — اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء ... » ١١١

٤ — ولو نزلنا عليهم كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم ... الأنعام ٧

٥ — لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ... الأعراف ٤٠

٦ — تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً ... الأعراف ٧٤

٧ — وجاؤوا على قميصه بدمٍ كذب ... يوسف ١٨

٨ — وآتت كل واحدة منهن سكيناً ... » ٣١

٩ — فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقفُ من فوقهم . النحل ٢٦

١٠ — ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً » ٦٧

١١ — والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الانعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً الى حين ... النحل ٨٠

١٢ — وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم (١) ... النحل ٨١

١٣ — يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وأستبرق متكئين فيها على الأرائك ... الكهف ٣١

١٤ — فاخلع نعليك أنك بالواد المقدّس طوى ... طاها ١٢

١٥ — هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ... الحج ١٩

---

(١) كناية عن الفروع والمغافر .

١٦ — وبئر معطلة وقصر مشيد ... الحج ٤٥

١٧ — يُحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير ... ٢٥

١٨ — الله نور السماوات والأرض مَثل نوره كمشكاة (١) فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكبٌ دريٌّ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيءُ ولو لم تمسسه نار ... النور ٣٥

١٩ — ولا يبدين زينتهنَّ الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن .. النور ٣١

٢٠ — والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جُناح ان يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة ... النور ٦٠

٢١ — قال يأيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ... النمل ٣٨

٢٢ — ولو انّ ما في الارض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم ... لقمان ٣٧

٢٣ — يُدنين عليهن من جلابيبهن ... الأحزاب ٥٩

٢٤ — ان اعمل سابغات وقدر في السرد ... سبأ ١١

٢٥ — يعملون له ما يشاءُ من محاريبَ وتماثيلَ وجفانٍ كالجوابِ وقدورٍ راسيات (٢) ... سبأ ١٣

٢٦ — غُرفٌ من فوقها غرف مبنيةٌ ... الزمر ٢٠

٢٧ — اذ الأغلال في اعناقهم والسلاسل يسحبون ... غافر ٧١

٢٨ — لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج (٣) عليها يظهرون . ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكؤن ... الزخرف ٣٤

---

(١) ان المفسرين قالوا أن المشكاة هي الكوة التي يوضع فيها المصباح ولكن روح الآية يلهم انها أناء شفاف يوضع فيها المصباح .

(٢) جفان جمع جفنه وهي قصعة الطعام الكبيرة والجواب جمع جابية وهي البئر الصغيرة والقدور جمع قدر .

(٣) المعارج ـ السلام او الادراج

٢٩ — يُطاف عليهم بصحاف من ذهب واكواب ... الزخرف ٧١
٣٠ — مُحلقين ومقصرين لا تخافون ... الفتح ٢٧
٣١ — ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون ...
الحجرات ٤
٣٢ — والطور وكتاب مسطور . في رق منشور . والبيت المعمور . والسقف المرفوع ... الطور ١/٥
٣٣ — خُلق الانسان من صلصال كالفخار ... الرحمن ١٤
٣٤ — يرسل عليكما شواظٌ من نار ونحاس ... » ٣٥
٣٥ — متكئين على فرش بطائنها من استبرق ... » ٥٤
٣٦ — حورٌ مقصوراتٌ في الخيام ... » ٧٣
٣٧ — على سرر موضوعة متكئين عليها متقابلين . يطوف عليهم ولدانٌ مخلدون . بأكواب وأباريق . وكأس من معين ... الواقعة ١٨/١٥
٣٨ — فضرب بينهم بسور له باب ... الحديد ١٣
٣٩ — وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ... » ٢٥
٤٠ — ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه ... الحاقة ٣٢
٤١ — ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قوارير قوارير من فضة قدروها تقديراً ... الانسان ١٦
٤٢ — في لوح محفوظ ... البروج ٢٢
٤٣ — فيها سرر مرفوعة . وأكوابٌ موضوعةٌ ونمارق مصفوفة . وزرابي مبثوثة ... الغاشية ١٦/١٢
٤٤ — في جيدها حبل من مسد ... المسد ٥

— ١٣ —

في هذه الآيات ذكر المساكن والبيوت والغرف والحجرات والأبواب والظهور والسقوف والقواعد والمعارج ؛ والأثاث المتنوع الذي يصنع من أصواف الأنعام وأوبارها وأشعارها ؛ والأسرة والأرائك والنمارق والزرابي والفرش

وبطائنها ؛ وللأواني المتنوعة من قدور وجفان وصحاف وأكواب ، وأباريق وكؤوس ومصابيح ومشاك وزجاج ، وللحلي والزينة بأنواعها ، وللخيام والبيوت التي تصنع من جلود الانعام ، وللثياب الحرير وغير الحرير والجلابيب والخُمُر والسرابيل والقمصان والنعال ، وللرماح والسلاح والسكاكين والدروع والسلاسل والاغلال ، ولادوات الكتابة من قرطاس وأقلام ومداد ورقوق ، وللشراب الذي يصنع من ثمرات النخيل والاعناب ، وللحلاقة ، ولمعادن الحديد والنحاس والذهب والفضة والصلصال الفخار ... وورود هذه الاعيان والمسميات وأوصافها ووجوه استعمالها في القرآن يدل على انها مما كان معروفاً لاهل بيئة النبي وعصره قبل نزوله ، حتى ولو جاء بعضها في معرض التمثيل والاخبار ووصف نعيم الجنة ، لان القرآن لايمكن أن يخاطب الناس الا بلسانهم وبما يعرفونه ، وكثير من الآيات قد خوطب بها العرب والحجازيون اهل بيئة النبي هم أول من خوطبوا بها ، واحتوت مايهم ان مافيها من مسميات هو من مستعملاتهم او معروفاتهم او مألوفاتهم .

ويجب ان يضاف الى هذه المسميات أدوات الملاحة والزراعة المتنوعة ، التي لاشك في أن كثيراً منها كان موجوداً تبعاً لوجود الملاحة والزراعة الذي الهمته الآيات التي نقلناها سابقاً ، وان يضاف كذلك الموازين والمكاييل المتنوعة التي كانت موجودة مستعملة في البيع والشراء على ما ذكرناه في بحث سابق وأوردنا الآيات التي تلهم وجودها ايضا .

وواضح ان اكثر هذه الادوات والحاجات مما يتطلب وجود طبقات من الصناع في أعمال البناء ونحت الحجارة ، وفي الحدادة والنجارة والتنجيد والصياغة والحياكة والخياطة والنحاسة والسروجية ، وغير ذلك مما تتطلبه الحاجات التي لابد منها لحياة المدن مهما كانت درجتها من الحضارة ومما ذكر اكثره في القرآن حسبما اقتضته الحكمة واتسق مع ظروف البيئة ومألوفاتها .

ومهما كانت اسفار الحجازيين البرية والبحرية ، فانه لايعقل ان يجلبوا كل مايحتاجون اليه من الادوات والحاجات المتنوعة الكثيرة مصنوعاً جاهزاً ، وان يكونوا في هذه المواد التي كثير منها حاجات عامة ويومية عيالاً على المجلوب من

الخارج ، لاسيما وليست المواصلات بينهم وبين البلاد التي تقدمت عليهم في الحضارة والصناعات سهلة قريبة المنال .

فبناء على هذا كله فاننا نستطيع أن نقول ، وتؤيدنا دلالات الآيات القرآنية وقرائنها وملابساتها انه كان في مدن الحجاز طبقات من الصناع يقومون بكثير من الحاجات ، ويسدون الفراغ في الاعمال الصناعية . واذا كان أهل الحجاز اعتادوا ان يجلبوا شيئاً مما كانوا يستعملونه في حاجاتهم البيتية والمعاشية من المصنوعات والادوات فالارجح انهم كانوا يقتصرون في هذا على مالا يمكن لصناعهم ان يقوموا به او يجيدوه ، وعلى مايكون من حاجات ترف كمالية دقيقة الصنع من أدوات الزينة والزخارف والحرير والاواني الدقيقة ، وبعض أنواع السلاح والنسيج .

ولقد كان في مدن الحجاز جاليات أجنبية يهودية ونصرانية ، سورية ومصرية وحبشية ورومية وعراقية سيأتي البحث عنها في فصل آخر ، واننا نرجح ان من هؤلاء من كان يقوم بكثير من الاعمال الصناعية في مدن الحجاز ويسد فيها فراغا غير يسير ، وانهم كانوا نواة ومعلمين لطبقات من الصناع المحليين كذلك . وفي روايات السيرة والتفسير أشارات الى شيء من هذا ، ولعلنا لانخطيء اذا قلنا ان التكسب والعمل في ساحات النشاط الاقتصادي لم يكن خاصاً بالرجل ، وانه كان للمرأة مشاركة فيها او في بعضها باسلوب ما ، مع ما يمكن ان يكون من ضيق الحيز الذي كانت تشغله ، والنبن الذي كان يلحقها مما هو متسق مع الذهنية العامة التي كانت سائدة في المجتمع العربي على ماسوف نبينه في الباب الثاني .

ولعل في آيات النساء :

يا أيها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا ان تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيما . ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً وكان ذلك على الله يسيراً . ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً . ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله ...

٢٩ — ٣٢

قرينة على ماتقوله من مختلف نواحيه ، وهـذا بالاضافة الى ما نقلته الروايات المؤيدة التي منها ما هو في درجة اليقين من ما كانت عليه السيدة خديجة من ثروة طائلة وما كان من اشتغال النبي (ص) في التجارة لحسابها لقـاء اجرة معينة قبل بعثته بمدة طويلة .

معايش العرب

— ١٤ —

من الطبيعي ان تكون تلك الاسفار والرحلات التجارية التي كان يقوم بهـا الحجازيون عامة وأهل مكة خاصة الى مختلف الاقطار قد يسرت لهم الاتصال بالعالم الذي كان أرقى حضارة منهم واكثر استمتاعاً بحياة الترف والنعيم ، وانهـم لا بد من ان يكونوا قد اقتبسوا كثيراً من مظاهر ووسائل تلك الحضارة وهذه الحياة ، وان ما نما وتـكاثر في أيديهم من أموال وثروات نتيجة للنشاط التجاري من ناحية والنشاط الزراعي من ناحية ثانية ، وما كان من توفر اليد الصانعة في مختلف الاعمال من ناحية ثالثة كان مما ساعد على ذلك .

ودلالات الآيات القرآنية وقرائنها تؤيد هذا القول الى حد غير يسير . ففيهـا وصف لزعماء مكة بالترف كما ترى في الآيات التالية :

١ — وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليهـا القول فدمرناها تدميراً .. الاسراء ١٦

٢ — بل قلوبهم في غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون . حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب اذا هم يجأرون ... المؤمنون ٦٣/٦٤

٣ — انهم كانوا قبل ذلك مترفين . وكانوا يصـرون على الحنث العظيم ... الواقعة ٤٥/٤٦

وآية آل عمران (١٤) التي نقلناها سابقاً وان كانت تصف الاشيـاء المحببة للطبيعة الانسانية بوجه عام الا انها تلهم ان الاوصاف ممـا كانت مشهودة الاثر في عصر النبي وبيئته كما هو المتبادر ، وقد احتوت الآية متنوع وسائل الترف كما لا يخفى .

وفي بعض الآيات التي نقلناها في معرض التدليل على عظم ثروات بعض الزعماء

مثل آيات الكهف ٣٨ ومريم ٧٣ وطاها ١٣١ والبلد ٦ مايدل على ان اصحابها كانوا يستمتعون بها استمتاع ترف ونعيم ايضاً .

هذا من ناحية ومن ناحية اخرى فان في القرآن اوصافاً كثيرة لما في الجنة من نعيم الحياة ووسائل الترف ، ولذائذ النفوس . ومن المعقول ان يكون الذين خوطبوا بهذه الاوصاف لاول مرة اي أهل بيئة النبي (ص) وعصره قد عرفوا المسميات والوسائل والمظاهر الموصوفة ، ومن المرجح ان يكون طبقات منهم قد عاشوا عيشة ترف ونعيم تقارب تلك الاوصاف بعض المقاربة ، وانهم قد عرفوا معرفة ممارسة واستعمال وتمتع الغرف العالية ، والقصور ، والحرير على انواعه من سندس الى استبرق ، والسرر الموضونة والفرش المبطنة بالحرير ، والأرائك ، والنمارق ، والزرابي ، والحلي المذهبة والفضة واللؤلؤ والمرجان والدر والياقوت ، واواني الذهب والفضة من صحاف وأكواب واباريق ، والزجاج والمصابيح والمشاكي والقوارير والزخارف المتنوعة مما ذكر في الآيات التي نقلنا بعضها في مبحث الحركة الصناعية والتي ننقل بعضها فيما يلي :

١ — كأنهن الياقوت والمرجان الرحمن ٥٧

٢ — متكئين على فرش بطائنها من استبرق . الرحمن ٥٤

٣ — على سرر موضونة . متكئين عليها متقابلين . يطوف عليهم ولدان مخلدون باكواب واباريق وكأس من معين . لا يصدعون عنها ولا ينزفون . وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون ، وحورٌ عين كأمثال اللؤلؤ المكنون الواقعة ١٥ — ٢٣

٤ — وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً . متكئين فيها على الارائك لايرون فيها شمساً ولا زمهريراً . ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا . ويطاف عليهم بآنية من فضة واكواب كانت قواريراً . قوارير من فضة قدروها تقديرا . ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا . عيناً فيها تسمى سلسبيلا . ويطوف عليهم ولدان مخلدون اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً . واذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا اساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً

فانت اذ تمعن في الاوصاف المذكورة في هذه الآيات وتلك تتيقن انها اوصاف مألوفة في الحياة الدنيا ، وان الذين خوطبوا بها لاول مرة لم يكونوا غرباء عنها . وهذا هو المتسق مع اسلوب القرآن وغاياته . حيث يكون تأثير الترغيب والترهيب اشد اذا كان بما هو معروف من وسائل اللذة والألم وآثارها المألوفة من قبل السامعين . وفي سورة البقرة آية تساعد على هذا الاستدلال حيث تقرر ان ما يرزق به اهل الجنة يكون متشابهاً لما كانوا يرزقون به فيتعرفون عليه ويقولون هذا مثل ما كان عندنا ومثل ما كنا نرزق به ، وهذه هي الآية :

وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ان لهم جنات تجري من تحتها الانهار كل ما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رُزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً البقرة ٢٥

ولا ينقض الاستدلال ما استدركه بعض المفسرين من اختلاف الطعم واللذة من رزق الدنيا ورزق الآخرة كما هو المتبادر .

ولعل في آية الاعراف هذه :

قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة لهم يوم القيامة . ٣٢

دليلاً على ما نحن في صدد تقريره ايضاً ، حيث تستنكر منع الاستمتاع بالطيبات من الرزق وزينة الله التي اخرج لعباده ، وتبيحها للمسلمين في الدنيا يشاركون فيها غيرهم وتحصرها لهم في الآخرة .

- ١٥ -

وفي القرآن آيات كثيرة مكية ومدنية حول الانعام والمواشي ، واشارات الى ما يجنى منها من فوائد ومنافع من البانها واصوافها واوبارها واشعارها ولحومها وجلودها وظهورها ، وكذلك الى حاجاتها من الماء والمرعى ، والى ما كان من بعض العادات المصطبغة بالصبغة الدينية في ذبحها واكلها وهديها وتحاليلها وتحريمها ونذرها ؛ كل ذلك بحفاوة كبيرة ، ومواضع عديدة ، واساليب متنوعة مما يمكن

ان يستدل به على انه كان لاهل الحجاز منها ثروة كبيرة ، ومنافع عظيمة ، ومشاغل كثيرة ، وانهم كانوا يعنون بها عناية فائقة ، كما ترى في الآيات التالية :

١ — زُيِّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث آل عمران ١٤

٢ — ولأضلنهم ولامنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام (١) . النساء ١١٨

٣ — يا ايها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الهدي ولا القلائد . المائدة ٢

٤ — جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد (٢) المائدة ٩٧

٥ — ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام (٣) المائدة ١٠٦

٦ — وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا (٤) الانعام ١٣٦

٧ — وقالوا هذه انعامٌ وحرث حجر لا يطعمها الا من نشاء بزعمهم وانعام حرمت ظهورها وانعام لا يذكرون اسم الله عليها (٥) الانعام ١٣٨

٨ — وقالوا مافي بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على ازواجنا وان يكن ميتة فهم فيه شركاء (٦) الانعام ١٣٩

٩ — ثمانية ازواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل آالذكرين حرم ام الانثيين ام ما اشتملت عليه ارحام الانثيين نبئوني بعلم ان كنتم صادقين . ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين قل آالذكرين حرم ام الانثيين ام ما اشتملت عليه ارحام الانثيين ام كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا (٧) . الانعام ١٤٣-١٤٤

---

(١) البتك — الخرق . (٢) سيأتي شرح هذه في باب العقائد والاديان .

(٣) الهدى هو الانعام التي تنذر للقربان التضحية عند الكعبة . والقلائد وهي مايوضع في اعناق الهدى من قلائد لاعلاف انها نذر للكعبة وسميت الانعام المقلدة بالقلائد .

(٤ و ٥ و ٦ و ٧) هذه عادات عليها صبغة دينية سيأتي شرحها في باب العقائد والاديان .

١٠ — ومن الانعام حمولة وفرشا . الانعام ١٤٢

١١ — والانعام خلقها الله لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس ان ربكم لرؤف رحيم . النحل ٧ — ٩

١٢ — وانزل لكم من السماء ماءً لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون(١) النحل ١٠

١٣ — وإن لكم في الانعام لعبرةً نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين(٢) . النحل ٦٦

١٤ — وجعل لكم من جلود الانعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ومن اصوافها وأوبارها وأشعارها اثاثاً ومتاعاً الى حين . النحل ٨٠

١٥ — ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها واطعموا البائس الفقير . الحج ٢٨

١٦ — والبُدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صوافّ فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها واطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون . لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم (٣) . الحج ٣٦ — ٣٧

١٧ — وانزل من السماء ماءً فاخرجنا به ازواجاً من نبات شتى . كلوا وارعوا انعامكم ان في ذلك لآيات لاولي النهى . طاها ٥٣ — ٥٤

١٨ — وانزلنا من السماء ماءً طهوراً . لنحيي به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا

---

(١) تسيمون : ترسلون أنعامكم للرعي .

(٢) الفرث نفايات الطعام بعد الهضم .

(٣) البدن : يطلق هذا على الابل والبقر . صواف : بمعنى وهي مصفوفة . المعتر : المحتاج السائل وكان من عادة العرب ان يلطخوا جدران الكعبة بدماء الهدى وان يدعوا لحومها دون مس لانها لله فنبهت الآية الى القصد الجوهري وهو تقوى الله وذكره والتزام حدوده .

انعاماً وانا سي كثيرا . الفرقان ٤٨ ـ ٤٩

١٩ ـ أولم يروا انا خلقنا لهم مما عملت ايدينا أنعاماً فهم لها مالكون . وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب افلا يشكرون ياسين ٧١ ـ ٧٢

٢٠ ـ الله الذي جعل لكم الانعام لتركبوا منها ومنها تأكلون . ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون . غافر ٧٩ ـ ٨٠

٢١ ـ والذي خلق لكم الازواج كلها وجعل لكم من الفلك والانعام ماتركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . الشورى ١٢ ـ ١٣

٢٢ ـ اخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال ارساها . متاعاً لكم ولانعامكم. النازعات ٣١ ـ ٣٢

ولا بد من ان القارىء قد لمس من هذه الآيات ما نوهنا به من الحفاوة التي اسبغها القرآن على موضوع الانعام والمواشي ، بسبب ما كان لها من اثر بليغ في حياة العرب في عصر النبي (ص) وبيئته . والذي يتبادر الى الذهن ان البدو هم الذين كانوا يعنون العناية الكبرى بتربية الانعام والمواشي ، ويعولون في حياتهم ومعايشهم وتنقلاتهم عليها اعظم تعويل ، لاتساع طبيعة حياتهم لها . ولانهم من طبيعتهم التنقل وراء الماء والكلأ وهما ما تحتاج اليه المواشي والانعام ، ولأن حياتهم المعاشية تضطرهم الى ذلك .

غير ان اطلاق الآيات القرآنية ، وتوجيه الخطاب فيها الى سامعين قريبين يسوغان القول ان أهل المدن والقرى الحجازية ايضاً كانوا يشاركون البدو في هذه الناحية ، حيث كان منهم اصحاب انعام ومواش كالبدو ، يعنون بها عناية كبيرة ، وينتفعون بها انتفاعا عظيما متنوع الوجوه . فالزراع منهم في حاجة ماسة الى الابل والبقر في الاعمال الزراعية ، والتجار منهم في حاجة ماسة الى الابل وخاصة في قوافلهم واسفارهم الطويلة الشاقة حيث لم يكن ليقوم بها غير الجمل الصبور المبارك .

كذلك في القرآن بضع آيات ذكر فيها الصيد ؛ مما يمكن ان يلهم انه كان من مشاغل العرب ومعايشهم المهمة في ذلك العهد ؛ يتمرنون به على اعمال الفروسية والطراد والرمي ، ويعولون عليه في معيشتهم وهذه هي الآيات :

١ — يا ايها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الانعام الآ ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وانتم حرم (١)... المائدة ١

٢ — واذا حللتم (٢) فاصطادوا ... » ٢

٣ — يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه ... المائدة ٤

٤ — يا ايها الذين أمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب اليم . يا ايها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم (٣) يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة او كفارة طعام مساكين او عدل ذلك صياماً ليذوق وبال امره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام . أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة (٤) وحرم عليكم صيد البر مادمتم حرما واتقوا الله الذي اليه تحشرون ... المائدة ٩٤ ٩٦

---

(١) لا تحلوا الصيد وانتم في حالة الحرم . وحالة الحرم قبل الاسلام كانت تعبر عن ظرفين على ما يستلهم من الآيات القرآنية والروايات وهما ظرف الأشهر الحرم وظرف منطقة بيت الله الحرام . والاول عام بحيث يشمل اي مكان وقد عدل هذا في الاسلام بالسنة النبوية بحيث صارت حالة الحرم هي حالة الاحرام اي لبس غير المخيط للزيارة او لحج :

(٢) اي اذا انتهت حالة الحرم .

(٣) الماشية عموماً .

(٤) قوافل المسافرين .

ويستلهم من آية المائدة (٤) ان العرب في عصر النبي (ص) وبيئته ساروا في فنون الصيد شوطاً غير يسير. فكانوا يستعينون عليه بالطيور الجارحة ـ كالبزاة والعقبان والصقور ـ وبالكلاب ، وكانوا يعلمون هذه الحيوانات الصيادة تعليما لتقوم بمهمتها على وجه مرضٍ . ويستلهم منها كذلك ان المسلمين اخذوا يتحرجون من أكل الصيد الذي يستعان عليه بالجوارح المعلمة ، فأحل لهم القرآن ذلك في حالة الحل ـ عكس الحرم ـ على شريطة ذكر الله عند رمي السلاح واطلاق الجارح .

ولقد اشير في الآية (٩٦) الى صيد البحر وما فيه من فوائد معيشية للناس في حالة السفر والإقامة ؛ وهذا يعني ان هذا الصيد مما كان يعول العرب عليه كذلك في معايشهم ، ويتخذون منه صناعة ومرتزقاً .

ومن الممكن ان يستلهم من الآيات ١ و ٢ و ٩٤ ـ ٩٦ ان العرب قبل الاسلام كانوا يحرمون صيد البر والبحر معاً في حالة الحرم تبعاً لما كانوا عليه من تحريم سفك الدماء وأعدام الحياة في الأشهر الحرم ؛ فرفع الحرج عن المسلمين في صيد البحر في حالتي الحل والحرم لشدة الضرورة والحاجة المعاشية الماسة ، وخاصة للمسافرين حذاء السواحل ، وأقر تحريم صيد البر في حالة الحرم وتحليله في الحل. واطلاق حل صيد البحر في الحالتين يمكن ان يدل على انه كان مرتزقاً وضرورة معاشية أشد لزوماً او اوسع نطاقاً من صيد البر .

وليس في الآيات تخصيص للذين كانوا يشتغلون بالصيد وحرفه . فمن الممكن ان يقال والحالة هذه ان العرب حضرهم وبدوهم على السواء كانوا في ذلك العهد يهتمون له ، ويعولون عليه ، ويشتغلون به وان كان الذي يتبادر ان البدو هم اكثر اشتغالاً وانهماكاً في صيد البر وتعويلاً في معايشهم عليه ، وأن اهل السواحل هم الاكثر اشتغالا وانهماكاً في صيد البحر وتعويلا في معايشهم عليه .

هذا ؛ وتعبير تناله أيديكم ورماحكم ، في الآية ٩٤ يلهم ان العرب كانوا يصطادون بالرماح أحياناً كما ان الآية (٤) تلهم انهم كانوا احياناً يصطادون بالنبل يرشقون به الصيد من بعيد ثم يطلقون الكلاب والطيور الجارحة وراءه .

وفي القرآن ايضاً آيات كثيرة يمكن الاستدلال بها على عادات عديدة من عادات بيئة النبي (ص) وعصره في المأكل والمشرب واللهو وفي المساكن والاثاث والكساء والزينة بالاضافة الى ما ذكرناه في البحوث السالفة ؛ ونذبه على ان هذا البحث لا يتناول ما يتصل بعاداتهم واخلاقهم وتقاليدهم العائلية والاجتماعية والدينية والنفسية لأن بحث ذلك سيأتي في فصوله الخاصة الآتية .

فاولاً الاطعمة

آ — مما يصح ان يقال استلهاماً من الآيات القرآنية العديدة في الانعام ولحومها وألبانها مما اوردنا منه جملة صالحة في احد المباحث السابقة أن لحوم الحيوانات وخاصة الضأن والمعز والبقر والابل والبانها كانت الغذاء الرئيسي او غذاءً رئيسياً في بيئة النبي (ص) وعصره . اما معالجة اللحوم للأكل فكل ماذكر منها «الحنيذ» وهو المشوي حيث جاء هذا التعبير في صدد ضيوف ابراهيم (ص) :

فما لبث ان جاء بعجلٍ حنيذ ... هود ٦٩

ومما لا ريب فيه انه كان لهم طرق عديدة اخرى لمعالجة اللحوم .

ب — هناك آيات مكية ومدنية فيها توكيد بتحريم أكل الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير ننقل منها ما يلي :

١ — انما حرم عليكم الميتة والدّم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه ... البقرة ١٧٣

٢ — حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقودة والمتردّية والنطيحة وما أكل السبع الا ما زكيتم وما ذبح على النصب(١)

---

(١) المنخنقة التي تموت خنقاً . المتردية التي تموت بالسقوط من عالٍ . النطيحة التي تموت بالنطح — وما أكل السبع التي يفترسها وحش وتموت بين انيابه والاستثناء للجميع ، فكل ما يعترض لمثل هذه الميتات ويلحق به حياة وذبح وذكر اسم الله عليه حل أكله . وما ذبح على النصب — الذي يذبح عند الاصنام . الاستقسام بالازلام — وهو بالغالب لحوم الميسر الذي سنشرحه بعد قليل .

وان تستقسموا بالازلام ذلكم فسق اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لاثم فان الله غفور رحيم ... المائدة ٣

٣ — قل لا أجد فيما أوحي اليّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة او دماً مسفوحاً او لحم خنزير فانه رجس او فسقاً أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان ربك غفور رحيم . الأنعام ١٤٥

واذا صح ان يقال ان هذه محرمات توراتية ايضاً وان الله اوحى بتحريمها في القرآن كما اوحى بتحريمها في التوراة فان الفقرات التي تذكر العفو عن حالة الاضطرار فيها كلها وجملة « اليوم يئس الذين كفروا من دينكم » في آية المائدة تدل على ان أهل بيئة النبي (ص) كانوا يتناولون هذه المحرمات او شيئاً منها على الاقل؛ هذا بالاضافة الى ان في آية المائدة ايضاحاً وافياً حيث ذكرت أنواع الميتات وحيث يلهم هذا الايضاح بقوة ان العرب كانوا يأكلون الأنعام التي تموت حتف أنفها أو بطاريّ غير الذبح ايضاً على ان هناك في سورة الانعام آية فيها صراحة أقوى في صدد عادة أكل الميتة عند العرب وهي :

وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء ... ١٣٩

ومما يروى عنهم قولهم كيف نأكل ما امتناه بايدينا ولا نأكل ما اماته الله ...

ولقد اورد المفسرون في صدد اكل الدم ان العرب كانوا يعالجونه بالطبخ ويضيفون اليه بعض النباتات ذروراً . ولا يبعد ان يكون هذا القول متصلاً بالمشاهدات المستمرة ؛ وعليه يمكن ان يقال أن العرب كانوا يأكلون الدم المسفوح

اما الخنزير فلم نطلع على رواية ما بشأن اعتياد اهل بيئة النبي (ص) وعصره أكله او بشأن ما اذا كان هذا الحيوان مما يعيش في بلاد الحجاز . ولهذا نميل الى القول ان أهل البيئة من العرب لم يكونوا يأكلونه عادة، وان كان من المحتمل ان يكونوا عرفوا لحمه وأكلوه في اسفارهم الى بلاد الشام حيث يعيش وحيث كانت النصرانية هي السائدة وحيث كان النصارى يأكلونه .

وواضح ان تحريم الدم والخنزير والميتة في القرآن في سبيل منع ما اعتبرته الحكمة من الخبيثات لا يتعارض مع كون هذه المحرمات هي محرمات توراتية ؛ وكل مافي الامر ان تحريمها في القرآن والتوراة معاً مع دلالات شيوع استعمالها في بيئة النبي (ص) وعصره يدل على انها من العادات القديمة جداً .

— ١٨ —

ت — لم يرد في القرآن ذكر للخبز ، ولكنه ورد فيه تعبيرات «حب الحصيد» وحباً متراكباً وحبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مأة حبة و « الفوم والعدس والبصل والبقل والقثاء » و « الزروع » بالاضافة الى ذكر الاشجار مما نقلنا آياته في بحث سابق فورودها يلهم ان أهل بيئة النبي (ص) وعصره عرفوا هذه الحبوب ومارسوها زرعاً وطعاماً . وهذا مؤيد بالأحاديث والروايات العديدة ايضاً .

ث — ولقد كثر ذكر النخيل وطلعه النضيد والهضيم في مناسبات وآيات عديدة نقلناها سابقاً . وفي احدى الآيات أشارة الى ما كان يتخذه العرب من ثمرات النخيل من الرزق الحسن (الطعام الحسن على الارجح) ، وهذا يدل على ان البلح ومجففه كان من الاغذية الرئيسية في عصر النبي (ص) وبيئته .

ج — ولقد ذكر العسل ايضاً في بعض الآيات ، منها ماذكر معه ان فيه شفاء للناس :

« واوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سُبل ربك ذُللا يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس ... النحل ٦٨/٦٩

ومنها ماذكر كوصف لما في جنات الاخرة من خيرات عظيمة :

مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسنٍ وانهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وانهار من عسل مصفى ... محمد ١٥

فيسوغ كما هو واضح ان يقال ان العسل كان من الاطعمة المرغوبة كما انه كان يتخذ علاجاً ، وانه كان يعالج بالتصفية ، وهذا مايمكن ان يدل على ذوق حضري راق كما هو المتبادر .

ع ــ ولقد ذكرت شجرة الزيتون والزيتون في آيات عديدة ، ونوه خاصة في بعضها بثمرها الذي فيه الدهن والصبغ (الأدام) الأكلين : « وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ الأكلين ... المؤمنون ٢٠

فيسوغ ان يقال ان الزيت كان من الاغذية المهمة في بيئة النبي (ص) وعصره . وفي آية سورة النور (٣٥) مايمكن الاستدلال به على ان الحجازيين كانوا يستعملونه في الاضاءة ايضاً . « كأنه كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولاغربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار » ومما يلفت النظر ذكر آية المؤمنون الشجرة بأنها تخرج من طور سيناء ، هذا في حين ان الزيتون ورد في آيات اخرى مع الرمان والعنب والنخيل وبأسلوب يلهم انه كان ينبت في الحجاز مثل هذه الاشجار كما في ايات الانعام (٩٩) و (١٤١) والنحل (١١) مثلاً . ولا ندري اذا كان يصح ان يقال استلهاماً من القرآن وتوفيقاً بين مدى آياته ان آية المؤمنون بسبيل ذكر مناشيء الزيتون الاولى وان الحجازيين أتوا بفسائله من منطقه طور سيناء وغرسوها في بعض مناطقهم لاسيما في الطائف المتشابهة في أقليمها لأقليم الشام بعض الشيء . وعلى كل حال فالذي نرجحه انهم كانوا يستهلكون من الزيت مقادير كبيرة للأكل والأستصباح ، وانهم كانوا يجلبون حاجاتهم منه او اكثرها من بلاد الشام .

خ ــ ولقد ذكر العنب والرمان مرات عديدة وذكر التين مرة ، واستعمل تعبيرات فاكهة وفواكه في آيات اخرى مطلقة ، وأشير الى استصناع الرزق الحسن (الطعام الحسن) من ثمرات الاعناب كثمرات النخيل . فهذا يسوغ القول ان أهل بيئة النبي وعصره كانوا يعرفون هذه الانواع وما في بابها غراساً واكلاً غذاء حيناً وتفكهاً حيناً آخر .

ولقد ذكرنا ماكان يشغله لحم الصيد البري والبحري من حيز في حياة العرب المعاشية وغذائهم فنكتفي بهذه الاشارة لأتمام السلسلة .

ثانياً الأشربة والخمرة :

ان في القرآن آيات عديدة في الشراب والخمرة والمسكر . منها ماأشير فيه الى صنع المسكر من ثمرات النخيل والاعناب ، ومنها ماأشير فيه الى ماأعده الله للمؤمنين في الجنة من الخمر والشراب وصفاتها وآنيتها وما بينها وبين شراب الدنيا وخمرها من فروق وما لخمر الدنيا من أعراض مستكرهة خلصت منها خمر الآخرة . ومنها ماشبه فيه بعض حالات الانسان بالسكر والسكارى ، ومنها مافيه سؤال عن الخمر ثم نهى عنه كما ترى فيما يلي :

١ — يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وأثمهما اكبر من نفعهما ... البقرة ٢١٩

٢ — ياايها الذين أمنوا لاتقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون ... النساء ٤٣

٣ — ياايها الذين أمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ... المائدة ٩٠ — ٩١

٤ — « لعمرك أنهم لفي سكرتهم يعمهون .. الحجر ٧٢

٥ — « ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً .... النحل ٦٧

٦ — « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ... الحج ٢

٧ — على سرر متقابلين . يطاف عليهم بكأس (١) من معين . بيضاء لذة للشاربين . لافيها غول ولا هم عنها ينزفون ... الصافات ٤٤/٤٧

٨ — « وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون يتنازعون فيها كأساً لالغو فيها

---

(١) في تفسير الطبري ان كل كأس في القرآن اريد بها الخمر :

ولا تأثيم . ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون . الطور ٢٢/٢٤

٩ — « ان الابرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً (١) . الدهر ٥

١٠ — ان الابرار لفي نعيم . على الأرائك ينظرون . تعرف في وجوههم نضرة النعيم . يسقون من رحيق (٢) مختوم . ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون . ومزاجه من تسنيم . عيناً يشرب بها المقربون . المطففون ٢٢-٢٨

١١ — ومن هذا الباب آيات سورة الواقعة ١٥ - ٢٣ والانسان ١٢ - ٢١ التي نقلناها في مناسبة سابقة والتي تحتوي وصفاً رائعاً لنعيم الجنة وفي جملة ذلك خمرها وآنيتها ومزج الزنجبيل بها .

فالآيات تلهم : اولاً ان صنع الخمر وتعاطيها كانا يشغلان حيزاً غير قليل في عصر النبي (ص) وبيئته ، وان تعاطي الخمرة كان واسع الشيوع ، وشديد الرسوخ ؛ فتكرر وصف الخمرة على انها من لذائذ الجنة الأخروية وذكر كونها في الجنة كالانهار كثرة يدلان على انها كانت من مطالب النفس الرئيسية التي لا منصرف عنها ؛ والتدرج في تأثيمها ثم النهي عن الصلاة في حالة السكر ثم النهي عنها يدل على شدة رسوخها بحيث لم يكن بد من هذا التدرج في سبيل الوصول الى الغاية التشريعية في أمرها ، ويلفت النظر الى أن آيات المائدة من أواخر ما نزل من القرآن وهذا يعني ان تعاطي الخمرة بين المسلمين ظل مستمراً شائعاً وراسخاً الى زمن متأخر من العهد المدني ، وفي هذا تقوية للاستدلال الذي ذكرناه .

وثانياً : ان اوصاف مجالس الشراب في الجنة واوصاف الخمرة ومزاجها مما هو مألوف من اوصاف الدنيا ، وان السامعين للقرآن لاول مرة لم يكونوا غرباء عنها وان منهم من كان يستمتع بشيء من ذلك حيث كان المترفون من اهل مدن الحجاز ومكة خاصة لان اكثر اوصاف مجالس الشراب مكية يتأنقون فيها

---

(١) يطيب طعمها بمزج الكافور :

(٢) الرحيق افضل انواع الخمر واجودها مع ماجاء في جميع البيان . ومن قول حسان :

يسقون من برد البريص عليهم بردى تصفق بالرحيق السلسل

فيعقدون لها المجالس ، وينصبون الارائك والاسرة ، ويزينونها بالرياحين ، ويمدون فيها موائد اللحوم والفواكه على انواعها ، ويلبسون فيها ثيابهم الحريرية ، ويطيبون خمرتهم بما يصلح من طعمها ورائحتها كالزنجبيل والكافور والمسك ، ويقف على خدمتهم الولدان ، ويدورون عليهم بالاواني الفضية والاقداح البلورية ، وذكر الزنجبيل والكافور والمسك خاصة من مؤيدات ما نقرره ، لانه لولم يكن مزج الخمرة بهذه العقاقير بسبيل تطييبها معروفاً ومألوفاً لما بانت الحكمة في ذكر ذلك لاسيما ومن المعروف اليقيني ان هذه العقاقير مما كان معروفاً ومألوفاً بصورة عامة وبسبيل تطييب الخمرة بصورة خاصة .

وثالثاً : ان الخمر تعبير عام يراد به الشراب المسكر ، ولا تعني نوعاً بعينه . ومن الممكن والحالة هذه ان يكون العرب قد عرفوا ومارسوا وصنعوا انواعاً عديدة ، ومن جملتها نوع ذي لون ابيض مما تلهمه احدى الآيات . وان الخمر كانت تصنع من البلح والعنب ، وطبيعي انه يدخل في هذا مجففاتها كالتمر والزبيب ، وان الناس كانوا يجنون من الخمرة منافع خاصة متصلة بالحركة الاقتصادية بالاضافة الى اللذة الشخصية .

هذا ؛ والذي نقدره وان لم يمكن الاستدلال عليه بالقرآن ان صنع المسكر وتعاطيه كان على الأغلب في المدن . فحدائق النخيل والأعناب انما كانت في الطائف ويثرب . وهذه المجالس التي كانت تعقد للشراب ويتأنق فيها لا تتيسر الا في المدن . والمنافع التي في الخمرة متصلة على الارجح بالحركة التجارية والصناعية التي هي من طبيعة حياة المدن . وطبعاً ان هذا لاينفي ان يكون بعض البدو قد تعاطوها ايضاً .

— ٣٠ —

ثالثاً الميسر :

وقد ذكر الميسر في آيات البقرة ٢١٩ والمائدة ٩١ — ٩٢ التي نقلناها في البحث السابق ، اذ جاء ذكر الميسر مع ذكر الخمر وسلك معها في سلك واحد من حيث المنافع والاثم والنهي عنه ، ووصفه رجساً يؤدي الى العداوة والبغضاء

ويمنع المرء من قيامه بواجباته نحو الله مثلها .

ويمكن ان يستلهم من هذه الآيات :

اولاً ان الميسر كان من العادات التي اعتادها الناس للّهو .

ثانياً انه كان شائعاً وراسخاً ؛ حتى لم يكن بد من الانتظار الى اواخر العهد المدني للنهي عنه باسلوب حاسم .

ثالثاً انه كثيراً ما كان ينشأ عنه خلاف يؤدي الى البغضاء والعداوة .

هذا ؛ ولقد تعددت الاقوال في مدلول كلمة « الازلام » الواردة في آية المائدة (٩١) وفي آية اخرى من السورة نفسها وهي (٣) التي نقلناها كذلك في مناسبة سابقة . فهناك من قال انها كانت سهام يقذف بها عند صنم هبل في فناء الكعبة للاستخارة . حيث كان نوعان من القداح نوع كتب عليه أمر ونهي ، ونوع كتب عليه الفاظ متصلة بمشاكل الانساب والدماء ، فيأتي الذي يعتزم سفراً او عملاً الى سادن الصنم ويطلب منه اجراء الاستخارة ، وهذا سيرد الكلام عليه في باب العقائد والأديان . وهناك من قال انها سهام كان يقذف بها على سبيل الميسر واللهو . وكانت عشرة سبعة منها رابحة وثلاثة خاسرة ؛ فيجتمع الفتيان فيشترون جذوراً ويقسمه الجزار الى عشرة اجزاء ، ثم تخلط السهام ويقذف بها فاصحاب الأسهم الرابحة يأخذون اللحم والخاسرون يغرمون الثمن . ولقد رجحنا في تفسيرنا لآية المائدة (٣) ان الازلام فيها ما ذبح على سبيل الميسر لان الآية تذكر صفات الأنعام التي يحرم اكلها . اما الأزلام الواردة في الآية (٩١) فمن المحتمل ان يكون المقصود بها أزلام الاستخارة لان الآية قد ذكرت الخمر والميسر والأزلام معاً . ويستخلص مما تقدم (١) ان الميسر عند العرب هو القمار عامة وانه متنوع الاشكال . (٢) ان هناك نوعاً من الازلام التي تقذف على لحوم الجذور فيخسر الخاسر الثمن ويربح الرابح اللحم [1]

---

(١) جاء في محاضرات الخضري ج ١ ص ٦٠ وصفاً للميسر ملموماً وملخصاً من مختلف الروايات العربية ننقله لاتمام الصورة : كانت طريقتهم في لعبه ان يجتمع الفتيان وذووا اليسار ويشترون جزوراً يقسمه الجزار الى عشرة اجزاء ثم-

رابعاً الغناء والسمر :

مما يلفت النظر انه ليس في القرآن ذكر للغناء ومجالسه ووسائله بصراحة ، حتى ولا في صدد ما اعده الله من المتع الاخروية كما هو الامر في الخمر اذا استثنينا

ـ يجاء بالقداح وهي عيدان من نبع ـ نوع من الشجر ـ قد نحتت وملست وجعلت سواء في الطول وهي عشرة : الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلى والمنيح والسفيح والوغد . والثلاثة الاخرى غفل من العلامات لا نصيب لها وانما جيء بها لتكثير العدد والسبعة الاول عليها علامات تبتدىء من الواحد وتنتهي الى السبعة للمعلى ، فيأخذ كل من الفتيان حسب مقدرته او استعداده ثم يدفعون هذه القداح الى رجل يقال له امين المقامرين فتدفن في الرمل او توضع فى خريطة ويلف على كف الامين قطعة من جلد لئلا يحابي احداً من المقامرين فيخرج له قدحه ، ويجلس خلفه آخر اسمه الرقيب وهو الحكم ثم يدخل الامين يده فيخرج قدحاً . ولنفرض ان الخارج هو الفذ فيكون لصاحبه عشر الجزور ثم تضرب القداح فان خرج التوأم فلصاحبه عشران ثم تضرب فان خرج المعلّى فلصاحبه سبعة اعشار ويكون الغرم على الباقين وعدد سهامهم ثمانية عشر فيجزأ الثمن على ثمانية عشر جزءاً يدفع كل منهم قدر سهامه ، وان خرج فى اول الضرب الرقيب فاز صاحبه بثلاثة اجزاء . ويضرب على السبعة الباقية فان خرج بعده المسبل اخذ ستة اجزاء وبقى واحد فلا يمكن الضرب عليه ، لان في القداح مايستحق اكثر من جزء وهو المعلى ، فيشترون جزوراً اخر يقسمونه كالاول فيكون الباقي احد عشر جزءاً فيضربون القداح عليها فان خرج المعلى اخذ سبعة وبقي اربعة فلا يمكن ضرب القداح عليها لان فيها من يستحق اكثر من اربعة وهو النافس فينحرون جزوراً أخر فيكون الباقي اربعة عشر جزءاً فاذا خرج النافس اخذ خمسة اجزاء ثم يضربون فاذا خرج الحلس اخذ اربعة ثم التوأم وله جزآن ثم الفذ وله واحد فالمجموع اثنى عشر جزءاً ويبقى جزءان يوزعان على الفقراء وكل من ربح في جزور ليس عليه من ثمنه شيء ويدفعه الذين لم يربحوا

عبارة فسرها بعض المفسرين بالغناء . ولم نستطع ان نتبين حكمة ذلك ،لا سيما والغناء يكاد يكون طبيعياً في البشر ، ويوجد في كل بيئة مهما كان حظها من الحضارة ، ثم ان مجالسه وفنونه ووسائله مما يشوق النفس ، ويكون لها متعة ولذة مثل متعتها ولذتها في تعاطي الشراب ومجالسه الانيقة .

وليس مما يصح فرضه ان لا يكون شيء منه فيه متعة ما في بيئة النبي (ص) وعصره ، وقد كان لها حظ غير يسير في المتع الاخرى وقد روت الروايات مايؤيد وجود شيء منه حيث ذكرت ان ابا جهل حينما ورد على ماء بدر مع الجيش الذي جاء لانقاذ قافلة ابي سفيان أبى ان يعود مالم تنحر الجزور وتشرب الخمور وتغني لهم القيان اي المغنيات ، فكان اصراره هذا سبباً من اسباب الاشتباك بين المشركين والمسلمين .

اما تلك العبارة التي اشرنا اليها فهي الواردة في سورة الجمعة « اذا رأوا تجارة او لهواً انفضوا اليها » حيث قال المفسرون ان اللهو المذكور كناية عن الغناء ، ورووا ان جوقة من الضاربين على المزمار والدفوف مرت من ناحية المسجد مرة فخرج كثير ممن فيه للفرجة فاستحقوا التنديد الذي احتوته الآية .

ومهما يكن من امر فالذي نرجحه ونستلهمه من اغفال القرآن ان الغناء لم يكن مترقياً في بيئة النبي (ص) وعصره ، وفي مكة والمدينة على السواء ترقياً متناسباً مع ما كانت عليه البيئة والعصر من حظ غير يسير في الحضارة والاستمتاع ولم يكن تعقد له مجالس انيقة ينتشي بها السامعون كما هو الشأن فى مجالس الشراب ، وبالتالي انه لم يكن متعة ولذة منتشرتين يتهالك الناس لها ويتحملان التنويه والحفاوة كتلك .

ولعل في تاريخ الغناء في المدينة في عهد الأمويين دليلاً على ذلك . فقد قامت للغناء دولة حقاً فيها فصارت تعقد المجالس الأنيقة التي يغني فيها ويضرب فيها على آلات الطرب ، ويشرب فيها معاً ؛غير ان المغنين والمغنيات قد جابن جلباً من الخارج وبعد الاسلام لا قبله .

اما السمر في القرآن آية ذكر فيها لفظ « السامر » وهي :

« قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على اعقابكم تنكصون. مستكبرين به سامراً تهجرون ... المؤمنون ٦٦ ٦٧

في الآيتين تنديد بالمشركين لهجرهم النبي وأحاديثه كأنما هو سامر اي قصاص يتلو عليهم اساطير، ويحكي لهم أقاصيص ، وليس منذراً داعياً الى الحق وصراط مستقيم .

فهذا يلهم انه كان يعقد في بيئة النبي (ص) وعصره حلقات سمر تقص فيه القصص وتدور فيه الاحاديث عن الامم والوقائع السالفة . ولعل استعمال كلمة « سامر » يلهم انه كان هناك أناس متخصصون لذلك ، يتحلق الناس عليهم ، ويقضون بعض الوقت او بعض الليل حولهم سامرين .

— ٢٢ —

خامساً المساكن:

في القرآن آيات عديدة يمكن الاستدلال بها على المساكن التي كان يتخذها العرب حضراً وبدواً . فآيات البقرة ١٨٩ والتوبة ١١١ والأعراف والنحل ٢٦ و ٨٠ والنور ٦١ والزخرف ٣٣ ـ ٣٤ والزمر ٢٠ والطور ٣ ـ ٤ وهذه الآيات مما نقلناه في مناسبات سابقة تدل على ان سكان المدن في الحجاز كانوا يبنون البيوت على أسس وقواعد ، ومنها ما كان ذات طبقات بعضها فوق بعض ، يصعدون اليها بالمعارج اي السلالم او الادراج؛ كما انهم كانوا حينما يظعنون الى البادية ـ وهذا ينسحب على سكان البادية بطبيعة الحال ـ يتخذون من جلود الانعام بيوتاً ، وانهم قد عرفوا الخيام ايضاً

سادساً الأثاث والفراش:

كذلك فان ايات الكهف ٣١ الزخرف ٧١ والرحمن ٥٤ والواقعة ١٧ ـ ٢٣ والانسان ١٢ ـ ٢١ والغاشيه ١٣ ـ ١٦ والنحل ٨٠ وسبأ ١٣ والزخرف ٣٣ ـ ٣٤ والمائدة ١١٢ وهي ما نقلناه ايضاً في مناسبات سابقة تدل على ان العرب كانوا يتخذون من أصواف الانعام واوبارها وأشعارها أثاثاً ، وانهم كانوا يستعملون الابسرة والنمارق والزرابي ومتنوع الأواني من جفان وقدور وأكواب واباريق وصحاف وموائد ونحوها .

— ٢٣ —

سابعاً الكساء:

ان آيات النور ٣١ و ٦٠ والاحزاب ٥٩ وهي مانقلناه سابقاً تدل (أ) على ان النساء كن يتخذن الخمار ، وان للثوب الذي يلبسنه شقوقاً (جيوباً) تبدو منها أعناقهن وبعض اقسام من صدورهن وظهورهن . (٢) على انهن كن يتخذن جلباباً فوق ثيابهن وهو غير الخمار ، ولعله نوع من العباءة. ومما تلهم الآيات ان اوصاف الكساء فيها هي اوصاف زي المرأة في المدن وان المرأة العربية المدنية لم تكن متشددة في التحفظ والتحشم وعدم الكشف عن المفاتن والزينة في طراز اللباس ولا ندري هل كانت المرأة البدوية تتزيا بنفس الزي او ما يقرب منه ، وان كنا نميل الى القول بالزي المتقارب .

اما الرجال فليس في القرآن شيء عن زي معين لهم كما هو الحال في شأن النساء . وكل ما هنالك انه ورد فيه ذكر الثياب والسرابيل والقميص والنعلين والتدثر ذكراً يلهم انه في صدد ثياب الرجال .

— ٢٤ —

ثامناً الحلية والتبرج:

ان جملة « ولا يضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن » في آية النور (٣١) تدل على ان المرأة العربية كانت تتخذ الخلخال في رجلها زينة لها . كذلك فأن الآيات العديدة التي اثبتناها في مناسبات سابقة والتي ذكر فيها الأساور الذهبية والفضية واللؤلؤ والمرجان كحلى تدل بطبيعة الحال على انها كان تتخذ من هذه الانواع حليا ايضاً .

وجملة « فليس عليهن جناح ان يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة » في آية النور (٦٠) وجملة « ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن » في اية النور (٣١) وجملة « ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى » في اية الاحزاب (٣٣) يمكن ان تلهم ان النساء العربيات كن يهتممن للتزين والتجمل والتبرج ؛ وان لم يكن هناك ما يمكن الاستدلال به على الطرز والزي .

هذا ؛ ومما يلحظ ان الآيات التي ذكرت اوصاف الجنة تلهم ان الرجال ايضاً سيحلون بأساور من الفضة والذهب واللؤلؤ . وقد جعلنا هذا نتساءل عما اذا كان رجال العرب في بيئة النبي (ص) وعصره يحلون بالأساور الفضية والذهبية وباللؤلؤ بشكل ما ؟ ونحن نميل الى الاجابة على هذا بالايجاب ، اتساقاً مع الحكمة القرآنية الملحوظة في اوصاف الجنة ، وهي ذكر اطيب ما عرف وألف ، وان لم يمكن تحديد شكل ذلك ، ولعله قصد به او مما قصد التختم بالذهب والفضة وجعل حبات اللؤلؤ خصوصاً للخواتم .

=٢٥=

تاسعاً اسلحة الحرب وفنون القتال :

ولقد رأينا ان نلحق بهذا البحث ماكان عند العرب قبل البعثة من أسلحة وفنون حربية مما تلهمه الآيات القرآنية ، مع التنبيه على ان الوارد في القرآن من هذا ليس شيئاً كثيراً :

(١) ففي صدد الاسلحة ورد أولاً تعبير « الاسلحة » في آية النساء التالية :

« واذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفةٌ منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفةٌ أخرى لم يُصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم ان كان بكم أذى من مطر او كنتم مرضى ان تضعوا أسلحتكم ... ١٠٢

وواضح ان هذ التعبير يشمل انواعاً من الاسلحة . وقد ورد في الآيات التالية اسماء بعض هذه الأنواع :

١ = « يأيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله ايديكم ورماحكم ٩٤ المائده

٢ – « وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم . ٨١ النحل

٣ = وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل انتم شاكرون ٨٠ الانبياء

٤ ـ « ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوّبي معه والطير وألنّا له الحديد . أن أعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحاً اني بما تعملون بصير ... سبأ ١٠/١١

ومع ان بعضها في صدد ما كان يصنعه داود (ص) من الدروع فان اكثرها قد خوطب به المسلمون ، وفيها ما يلهم ان ما كان يصنعه كان مما يستعملونه ايضاً . وعلى هذا فأنهم عرفوا واستعملوا الرماح وسرابيل الحرب — والبأس بمعنى الحرب — اي ثياب الحرب من دروع ومغافر وأكمام الخ . والروايات اليقينية تذكر السيوف على انها كانت من اسلحة العرب الرئيسية كما لايخفى ، ومما لايحتمل الشك انها تدخل في مشمول تعبير « الاسلحة » الوارد في آية النساء ، بل ان من الممكن ان يقال انه عناها في الدرجة الاولى ، لأنها هي التي يحملها المرء حملاً ملازماً ولا يخلعها — لايضعها — ألا عند الضرورة .

(٢) وفي صدد اسلوب القتال ورد في سورة الانفال الآيات التالية :

«يا ايها الذين أمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دُبره إلا مُتحرفاً لقتالٍ او متحيزاً الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ... ١٥ — ١٦

ووردفي سورة الصف الآية التالية :

« ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص . ٤

فهذه الآيات تلهم ان من اساليب العرب في القتال الزاحف والقتال صفوفاً ؛ وانهم كانوا احياناً مع ذلك ينقسمون الى جماعات او فئات ، وان المقاتلين كانوا يتحرفون في القتال كراً وفراً ، وينتقلون اثناء المعركة من نقطة الى نقطة ومن جماعة الى جماعة.

(٣) وفي صدد النفرة الى الحرب وردت الآيات التالية :

١ — يا ايها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات او انفروا جميعاً .

النساء ٧١

٢ — انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وانفسكم في سبيل الله .

التوبة ٤١

وهذه الآيات هي بسبيل استنفار المسلمين الى قتال المشركين ؛ غير ان المصطلحات التي احتوتها لا بد من ان تكون مألوفة في الاستنفار الى الحرب والاستجابة اليه ؛ وبالتالي فأنها تلهم بأن العرب كانوا حينما يدعوهم داعي الحرب يخرجون اليها جماعات جماعات او جمعاً كثيفاً كما انهم كانوا يخرجون اليها بأسلحة خفيفة وبدون اثقال احياناً وبأسلحة ثقيلة وبأثقال احياناً ، ولعل هذا ما يعني فيما يعنيه انهم كانوا يخرجون ومعهم نساؤهم حيناً وبدون نساء حيناً آخر حسب ظروف الحرب والدعوة .

الفصل الثالث

الجاليات الاجنبية في الحجاز

استدلالات قرآنية على وجود اجانب في مكة ـ الآيات المكية في الكتابيين ـ دلالة الآيات على احوال الكتابيين في مكة ـ استدلالات على نصرانية اكثريتهم ـ بحث في جنسية نصارى مكة ـ دلالة على حداثة عهد نزوح بعض الاجانب منهم ـ عدم تكتل النصارى ودلالته ـ بحث في احتمال وجود اسرائيليين في مكة واستدلالات قرآنية ـ دلالة خلو القرآن المكي من الحملات على اليهود المعاصرين ـ اليهود في المدنية ـ كثرة الآيات المدنية فيهم واسلوبها ودلالته ـ اسرائيلية اليهود ـ مركزهم وأثرهم الديني والطائفي ـ اندماجهم في حياة العرب الاجتماعية ومداه ـ نشاطهم السياسي ـ قلاعهم وحصونهم ـ كثرتهم وانتشارهم ـ ثروتهم ـ تعاطيهم الربا واثره ـ قدم عهدهم في الحجاز ـ صور قرآنية عن اخلاقهم ـ تعاطيهم السحر ـ مظاهر مسكنتهم وذلتهم وشتاتهم ـ اثر اليهود في العرب ـ الأجانب والنصارى الآخرون في المدينة ـ الآيات المدنية في النصارى ـ دلالة الآيات على لقاء النبي (ص) نصارى ـ ترجيح احتمال وجود طائفة نصرانية مستقرة ـ ترجيح احتمال وجود نصارى غير عرب ـ اخلاق النصارى واثرهم.

النصارى والأجانب في مكة

ـ ١ ـ

في القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على وجود جاليات اجنبية في الحجاز وفي مكة والمدينة بنوع خاص كانت تعيش الى جانب العرب في عصر النبي عليه السلام.

والآيات في صدد وجود هذه الجاليات في المدينة أكثر واوضح منها مما هو في صدد وجودها في مكة بل انه ليس في القرآن المكي إلا آية واحدة فيها صراحة تامة وهي آية النحل :

ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ... ١٠٣

حيث حكت قول مشركي قريش ان الذي يعلم النبي (ص) شخص في مكة ، ويظهر انهم عينوه ، وهو غير عربي بل ولا يحسن العربية . على انه يوجد في القرآن المكي آيات عديدة يمكن الاستدلال بها على وجود جالية اجنبية في مكة وان لم تكن في صراحة هذه الآية .

ففي سورة الفرقان اية تقارب في معناها آية النحل ولكنها ليست في صراحتها وقد جاءت في صيغة تلهم الكثرة من جهة اخرى بينما آية النحل انما أشارت الى شخص واحد . وهي :

وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه واعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤوا ظلماً وزوراً ... الفرقان ٤

فمن المحتمل جداً ان يكون المعنيّ في هذه الآية ايضاً فريقاً من جنس الشخص الاول وبالتالي من جالية اجنبية موجودة في مكة . وهذه الآية وتلك تلهمان بالاضافة الى وجود جالية اجنبية ان بين أفراد هذه الجالية فريقاً متميزاً في عقله وثقافته الدينية وغير الدينية . لأن مشركي قريش لم يكن لهم ان ينسبوا هذا الامر الخطير وهو تلقين النبي (ص) وتعليمه مايتلوه من الآيات والذكر الرائع في اسلوبه وروحانيته الى شخص او أشخاص مالم يكونوا قد عرفوا انهم مظنة هذا التعليم والتلقين بما هم عليه من ثقافة وعقل (١) .

---

(١) يجد المتتبع لروايات السيرة والتاريخ واسماء الصحابة اسماء عدد غير قليل من الاجانب الذين كانوا في مكه في حقبة البعثة النبوية منهم من كان مملوكا ومنهم من كان صانعا ومنهم من كان تاجراً . ونورد الاسماء الآتية كأمثلة :

١ ـ جبر الرومي وقيل انه كان حداداً ومملوكا لعامر الحضرمي وانه هو الذي ـ

وهناك غير هذه الآية آيات مكية كثيرة نزلت في صدد أهل الكتاب ، والأستشهاد بهم على اعتبار أنهم اهل العلم والذكر والكتاب ، وفي صدد موقفهم من الدعوة الأسلامية ومجادلتهم ومناقشة عقائدهم وخلافاتهم تورد منها مايلي :

١ — الذين اتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لايؤمنون ... الانعام ٢٠

٢ — أفغير الله ابتغي حكماً وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلاً والذين اتيناهم الكتاب يعلمون انه منزلٌ من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين ... الانعام ١١٤

٣ — الذين يتبعون الرسول النبي الاميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل ... الاعراف ١٥٧

٤ — فان كنت في شك مما انزلنا اليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك

ـ عناه المشركون في زعيم تعليم النبي (ص) :

٢ ـ يسار الرومي وهذا رفيق لجبرا . ووصف ان الاثنين كانا يقرآن التوراة والانجيل .

٣ ـ عايش غلام حويطب بن عبد العزى .

٤ ـ اناسطاس الرومي وهو غلام لصفوان بن امية .

٥ ـ صهيب بن سنان الرومي وكان ذا مال .

٦ ـ سلمان الفارسي وقد نوهت الروايات بما كان عليه من علم وثقافة مسيحية .

٧ ـ نجار قبطي لم نقف على اسمه .

٨ ـ شماس رومي قدم الى مكة للتبشير لم نقف على اسمه . (اقرأ تفسير البيضاوي في صدد تفسير آيتي النحل والفرقان وتفسير الخازن ج ١ ص ١٣٧ و١٣٨ وابن هشام ج ١ ص ١٨٢ و ٢٠٥ ـ ٢١٠ و ٢٩٦ وج ٢ ص ٢٣ . وأسد الغابة في اسماء الصحابة حيث يوجد فيه اسماء عدد كبير من الاحباش وغيرهم كانوا في مكة وأسلموا .

لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين يونس ٩٤

٥ — والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك ... الرعد ٣٦

٦ — وما ارسلنا من قبلك الا رجالاً نوحي اليهم فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لاتعلمون ... النحل ٤٣ (١)

٧ — قل آمنوا به اولا تؤمنوا إن الذين أُتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً . ويخرون للاذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً ... الاسراء ١٠٧ - ١٠٨

٨ — (٢) ذلك عيسى بن مريم قولُ الحق الذي فيه يمترون . ماكان لله ان يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فاختلف الاحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ... مريم ٣٤ - ٣٧

٩ — وليعلم الذين أتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبتَ له قلوبهم ... الحج ٥٤

١٠ — ان هذا القرآن يقصُّ على بني اسرائيل اكثر الذي هم فيه يختلفون . النمل ٧٦

١١ — الذين اتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرأون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون . وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ... القصص ٥٢ / ٥٥

١٢ — ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن إلاّ الذين ظلموا منهم

---

(١) في سورة الانبياء آية مماثلة لهذه الآية وهي الآية (٧)

(٢) هذه الآيات بقية سلسلة فيها قصة ولادة يحيى وقصة ولادة عيسى (ص) تضمنتا التنبيه على معجزة الله في الولادتين وكأنما اريد بالاولى تمهيد للثانية فولادة يحيى (ص) معجزة فلا يقتضى ان يكون ابنا لله وولادة عيسى (ص) مثلها معجزة فلا يقتضى ان يكون ابناً لله او جزءاً من الاله ...

وقولوا آمنا بالذي أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن لهم مسلمون . وكذلك أنزلنا اليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون ... العنكبوت ٤٦ - ٤٧

١٣ — ألم غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون، في بضع سنين لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ... الروم ١ / ٥

١٤ — ويرى الذين اوتوا العلم الذي انزل اليك من ربك هو الحق ويهدي الى صراط العزيز الحميد ... سبأ ٦

١٥ — وما تفرقوا الا من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك الى اجل مسمى لقضي بينهم وإن الذين اورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب ... الشورى ١٤

١٦ — ولما ضرب ابن مريم مثلاً اذا قومك منه يصدون . وقالوا أءلهتنا خير ام هو ماضربوه لك الا جدلاً بل هم قوم خصمون . إن هو الا عبد انعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني اسرئيل ... الزخرف ٥٧ - ٥٩

١٧ — ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولابين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله واطيعون. إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فاختلف الاحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم اليم ... الزخرف ٦٣ - ٦٥

— ٣ —

فهذه الايات يمكن ان تلهمنا مايلي :

١ — إنه كان في مكة اناس من اهل الكتب السماوية وكانوا من جملة من اتصل بهم النبي (ص) ودعاهم الى التصديق برسالته ومتابعته .

٢ — انهم لم يكونوا قليلين . وان منهم من كان ذا سعة وثروة تمكنه من الانفاق في سبيل البر والخير ، كما ان منهم من كان قوي النفس والشخص بحيث

لا يبال بلوم زعماء المشركين على متابعتهم للنبي (ص) ، (١) وهذا وذاك يلهمان ان منهم من كان ارقى طبقة من ارقاء وغلمان في خدمة الزعماء والتجار وملك ايمانهم .

٣ — ان منهم من كان متميزاً في ثقافته ومعارفه الدينية بحيث كان اهلاً للرجوع اليه واستشهاده في امر رسالة النبي (ص) وصحة وحي الله اليه وصدق القرآن ؛ وان هذا الفريق لم يكن نكرة في اوساط مكة ؛ بل وكان موضع اعتماد وثقة من العرب او اهل مكة ، ومرجع استفتاآتهم في الامور والمعارف الدينية والدنيوية .

٤ — انهم على العموم كانوا رقيقي العاطفة دمثي الاخلاق ، ثابتين في مايعتقدن انه الحق ولو لقوا في سبيل ذلك العنت ، جريئين في اظهار عقيدتهم ؛ وقد تجلت جرائتهم في متابعة النبي وسجودهم عند سماع القرآن واعلانهم انه الحق ، وعدم مبالاتهم بما كان عليه اكثر اهل مكة وزعماؤهم الاقوياء من الموقف الجحودي .

٥ — ان منهم من كان مجادلاً حجاجاً بل ومتطرفاً في الجدل والحجاج الى درجة عده ظالماً متجنياً فيها .

٦ — ان ايراد قصتي ولادة يحيى وعيسى (ص) بسبيل الرد على زعم ألوهية عيسى (ص) او نبوته لله ، وايراد خبر انكسار الروم النصارى مع بشرى انتصارهم بعد قليل ، والجدل ثانية في امر حقيقة عيسى (ص) ورسالته يمكن ان يلهم ان الكتابيين الذين انطوت الآيات على ملهمات وجودهم في مكة هم او اكثرهم من النصارى .

— ٤ —

ومع ان من المرجح كثيراً ان من هؤلاء من كان عربي الجنس مستقراً (٢)

---

(١) هذا ماتلهمه آيات القصص .

(٢) في حديث رواه البخاري عن عائشة (رض) ان ورقة بن نوفل ابن عم خديجة (رض) كان قد تنصر وقرأ العبرانية وكتب بها ، ووجود نصارى عرب غيره ولو افراد في مكة مما لايحمل شكاً في اعتقادنا .

في مكه او متردداً (١) عليها من اليمن وأطراف الجزيرة الشمالية حيث كانت النصرانية سائدة بين حضر العرب وقبائلهم ، والاتصال مستمراً فأن مما لايصح الشك فيه وبالاستناد الى صراحة آية النحل ان منهم من كان غير عربي ايضاً ، سواء منهم ممن تلهم الآيات انه مستقر في مكة او ممن يحتمل انه طارق او زائر او وافد مستطلع . والذي نرجحه ان اكثر افراد الجالية الاجنبية المقيمين في مكة هم من النصارى الروم والسريان والسوريين وانهم جاؤوا من بلاد الشام اما بتشجيع من بعض تجار قريش ، ليكون عندهم من يقوم بما هم في حاجة اليه من الصناعات ، واما بسبب اضطهاد وقع عليهم ، فلقوا في مكة او من زعمائها ترحيباً وتشجيعاً . فبلاد الشام متصلة بالحجاز والاسفار بينهما متوالية ، وقديماً كانت مهجراً للاسرائيليين من بلاد الشام كما انها كانت مقصداً للطراق ، يفدون اليها من حين الى آخر للاعمال الصناعية حيناً والتجارية حيناً والتبشيرية حيناً . وفي روايات السيرة مايستأنس به على كل ذلك ، هذا بالاضافة الى ماكان يتكرر في بلاد الشام من ثورات واشتباكات واضطهادات دينية متنوعة الاسباب والصور مما أشارت اليه آية في سورة البقرة :

تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ماقتتل الذين من بعدهم من بعد ماجاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ماقتتلوا ولكن الله يفعل مايريد (٢) ٢٥٣

وما يحتمل ان يكون حافزاً الى هجرة من هاجر الى مكة والاستقرار فيها . واذا كنا رجحنا جنسية وصفات ومصدر هؤلاء الاجانب على الوجه الذي

---

(١) في كتاب حياة محمد للدكتور هيكل ان وفداً نصرانياً قدم الى مكة مستطلعاً وانه لم يلبث ان آمن بصدق والرسالة النبوية والوحي القرآني وان اهل مكة انتقده وعاب عليه عمله ٥٠٠

(١) اقرأ كتاب فتح مصر لبطلر ترجمة ابي حديد ص ١٣ — ٨٣ ففيه مؤيدات مفصلة .

ذكر فاننا لانفي ان يكون منهم افراد من المصريين والعراقيين والاحباش والفرس صناعاً او تجاراً او ارقاء عند بعض زعماء مكة وتجارها ، وروايات السيرة تساعد على الايجاب بل والجزم ايضاً . (١)

وتنوع جنسيات الاجانب من رومية وحبشية وعراقية ومصرية وشامية وسريانية وفارسية ، احراراً وارقّاء يمكن ان يكون من ناحية ما دليلاً على ما كان من صلات اهل الحجاز ومكة خاصة ببلاد الشام وفارس ومصر والحبشة والعراق ، وصلات اهل هذه البلاد بها .

وليس في الامكان تحديد زمن نزوح الاجانب الى مكة واستقرارها فيها . غير ان آية النحل (١٠٣) تساعد على القول بان افراداً منهم على الاقل ليسوا قديمي عهد في مكة ، وان من المحتمل ان يكونوا جاؤوا اليها في حياة النبي (ص) او قبيل بعثته ؛ لان الآية تذكر ان الذي نسب اليه تعليم النبي أعجمي اللسان ؛ ولو كان قديم العهد لكان برع في اللغة العربية ولما وصف بهذا الوصف كما هو المتبادر .

وفي طيات روايات السيرة يجد المتتبع ان بعض الذين ذكرت اسماؤهم من مسلمي الاجانب كانوا مايزالون يحتفظون باعجاتهم ولكناتهم الأعجمية ، وان منهم من كان يلكن بالحاء هاء وبالصاد سيناً وبالشين سيناً وبالعين الفاً وهلم جرا .

---

(٢) ١ — اقرأ الزيل (١) في الصحيفة ففيه بعض اسماء مصريين وفارسيين بالأضافة الى الاسماء الرومية .

٢ — يجد المتتبع لاسماء الصحابة وروايات السيرة وخاصة اسد الغابة اسماء عدد وافر من الاحباش كبلال ووحشي وشقران وانجشه والاسود وام ايمن الخ...

٣ — ان بعض المستشرقين يحاول ان يعلق اهمية على تعبير (احابيش مكة) الذي ورد في روايات السيرة وان يستخرج منه ان هؤلاء الاحابيش هم جوال اجنبية ، واكثرهم احباش . وانهم كانوا يعيشون في حي او منازل خاصة بهم في ظاهر مكة ، ومع ان كتب اللغة (لسان العرب مادة حبش) والسيرة (ابن هشام ج ٣ ص ٧٤) لاتشجع على هذا التوسع والتخريج فانها لا يخلوان من وجاهة في مايتبادر لنا .

ونريد ان ننبه على امر مهم ؛ وهو اننا مع ماذكرناه من احتمال كثرة عدد الكنابيين والاجانب النصارى في مكة فاننا لانعني انهم كانوا يؤلفون عدداً ضخماً وانه كان لهم كيان متكتل ذى اثر ايجابي واسع فيها كما كان شأن الاسرائيليين في المدينة على ماسوف نذكره بعد قليل ، بل الصحيح هو العكس ، حيث نرجح ان عددهم لم يكن ليتجاوز المئات القليلة ، وان تنوع جنسياتهم وحالاتهم وظروف هجرتهم وحداثة بعضها لم تكن لتساعد على ان يكونوا ذوي كيان متكتل ذي اثر ايجابي كبير . ومن الممكن الاستدلال على هذا بعدم وجود مايدل على اصطدام وجدال معهم ، وكيد ودس ونشاط متنوع النواحي لهم في القرآن المكي ، في حين ان القرآن المدني قد احتوى الفصول الطوال عن اليهود في ذلك كله .

— ٥ —

واذا كنا رجحنا ان الكنابيين والاجانب كلهم او جلهم نصارى فان هذا لا يعني كذلك انه لم يكن في مكة اسرائيليون ؛ بل هناك آيتان فيها ما يلهم ذلك . ففي سورة الشعراء الآيات التالية :

«وانه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الامين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين . وانه لفي زبر الاولين . أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني اسرائيل ... ١٩٢ – ١٩٧

حيث احتوت استشهاداً بعلماء بني اسرائيل ؛ وحيث تلهم صيغتها ان بعض علماء بني اسرائيل قد شهد بصحة الوحي القرآني واعلن مطابقته لما عند اليهود من علم ، ومعنى هذا انه كان في مكة بعض علماء بني اسرائيل في اثناء العهد المكي النبوي .

وفي سورة الاحقاف آية اخرى من هذا الباب ولكنها أكثر وضوحاً وهي :

«قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله . فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ... ١٠

حيث تحتوي صراحة شهادة واقعية من أحد بني اسرائيل على صحة الوحي القرآني ومطابقته لما بين أيديهم ، وخبر ايمانه به .

ولقد ذكرت بعض الروايات ان آية الاحقاف هذه وآية الشعراء الاخيرة هما

مدنيتان ، غير ان صيغتها وانسجامها التام في سياق الآيات السابقة واللاحقة بها واتصال موضوعها بمواقف مشركي مكة مباشرة وأقامة الحجة عليهم تجعل مكيتها هي الراجحة ، وتجعل الأستدلال بها على لقاء النبي (ص) بعض الاسرائيليين في مكة صحيحاً ، وتجعل احتمال وجود بعض الاسرائيليين في مكة مستقرين قائماً ، وتجعل شمول الآيات المكية السابقة التي تضمنت استشهاد الكتابيين وايمانهم وخبر فرحهم بما انزل على النبي لهؤلاء أيضاً وارداً ووجيهاً .

وكل ما هنالك ان خلو القرآن المكي من حملات على اليهود وتنديد بالمعاصرين منهم (١) ، ومن آية اشارة الى اصطدام او احتكاك او حجاج لجاج بينهم وبين النبي (ص) يجعل من السائغ ان يقال بل ان يجزم بأنه لم يكن في مكة جالية اسرائيلية كبيرة او ذات شأن ايجابي في حياتها ومجتمعها ، وان الذين كانوا مستقرين منهم فيها لم يكونوا ليتجاوزوا الأفراد . بالاضافة الى احتمال تردد بعضهم من آن لآخر عليها من المدينة ، واحتمال وجود صلات بينهم وبين اهلها مما يصح ان يعد طبيعياً ولا يحمل ريباً ، لا سيما وقد كان موضوع رسالة موسى (ص) ومعجزاته واحداث بني اسرائيل وخلافاتهم ، من المواضيع التي كثر الجدل فيها بين النبي (ص) ومشركي مكة اولاً ، وكان لليهودية آثار متنوعة في عقائد العرب وافكارهم مما سوف نتكلم عنه في باب العقائد والاديان ثانياً ، وكان في المدينة ومناطقها جاليات اسرائيلية كبيرة لا يعقل ان تكون في عزلة عن مكة ثالثاً ولقد ورد في القرآن المكي فصول كثيرة ومتنوعة وفي اكثر السور المكية في بني اسرائيل ؛ غير أنها جاءت في سياق قصص موسى (ص) وفرعون ، واحداث بني اسرائيل القدماء ، وبأسلوب مماثل لاسلوب القصص القرآنية المكية الاخرى ، واذا كان ليس فيها دلالة على وجود جالية اسرائيلية ذات شأن في مكة فأن ما فيها من اسهاب وتكرار وحفاوة اكثر من غيرها من القصص ، ثم ما تكررت الاشارة اليه من خلافات بني اسرائيل واحداثهم بعد موسى (ص) ، ومن التنويه ببني اسرائيل وانبيائهم وما كان من عناية الله بهم يدل على صحة ما ذكرناه آنفاً من الصلات والآثار .

---

(١) ننبه على ان آيات الاعراف ١٦٣ - ١٧٠ هي مدنية

— ٦ —

اما في المدينة فان القرآن المدني يمدنا بمعلومات وافية عن الجاليات الاسرائيلية الكبيرة الموجودة في المدينة ومناطقها ؛ حيث احتوى فصولاً عديدة بمناسبة الموقف الجحودي والحجاجي الذي وقفه اليهود من الدعوة النبوية بعد هجرة النبي (ص) الى المدينة ، وما كان بسبيل ذلك من احتكاك واصطدام .

وقد وجه القرآن الخطاب لليهود بتعبير « بني اسرائيل » كما نعى عليهم ملك اليهود الأقدمين مع موسى والنبيين (ص) من بعده ، وما كان منهم من تعجيز واحراج ، وكفر وتكذيب ، وغدر ونقض للشرائع وتحريف للكلام عن مواضعه وذلك في صدر التنديد في موقفهم من النبي (ص) موقفاً مماثلاً لذلك الموقف . وفي كثير من الفصول جعل اليهود المعاصرون والقدماء موضوع خطاب وسياق وسلسلة واحدة حيث يوجه الكلام الى بني اسرائيل او الى اليهود بصيغة المخاطب القريب فيقص ما كان من الاقدمين وما كان من المعاصرين ، باسلوب يرجح ان المقصود به تقرير الصلة اللاحمة النسبية بين هؤلاء واولئك . وربط ما بدا من اخلاق المعاصرين ومواقفهم بما كان من اخلاق القدماء كأن الجميع يصدرون عن جبلة وخصائص واحدة كما ترى في الامثلة التالية :

١ — يابني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم وأوفوا بعهدي اوف بعهدكم وإيّاي فارهبون . وآمنو بما انزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا وإياي فاتقون ... البقرة ٤٠ — ٤١

٢ — يابني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يُقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولاهم ينصرون . واذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم . واذ فرقنا بكم البحر فانجيناكم وأغرقنا ال فرعون وانتم تنظرون ... البقرة ٤٧ ٥٠

٣ ــ(١)وإذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون . فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون . ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة او اشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الانهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون افتطمعون (٢) أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون . واذا لقوا الذين آمنو قالوا آمنا واذا خلا بعضهم الى بعض قالوا اتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجّوكم به عند ربكم افلا تعقلون(٣).
البقرة ٧٢/٧٦

٤ ــ واذ اخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احساناً وذي القربي واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً واقيموا الصلاة وأتوا الزكاة ثم توليتم الا قليلا منكم وأنتم معرضون ... البقرة ٨٣

٥ ــ ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى انفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ... البقرة ٨٧

٦ ــ سل بني اسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فان الله شديد العقاب ... البقرة ٢١١

٧ ــ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات ... النساء ١٥٣

٨ ــ لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم

---

(١) قبل هذه الآيات آيات ذبح البقرة وما كان حجاج بني اسرائيل مع موسى في صدده والآيات تعقيب على ذلك.

(٢) الخطاب للنبي(ص)والمسلمين وهذا ينتقل الكلام بين القدماء والمعاصرين ويستمر ضمير المخاطب القريب .

(٣)وفي هذه الآية انتقال من الخطاب عن القدماء الى الخطاب عن المعاصرين .

ذلك بما عصو وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل اليه ما اتخذوهم اولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون ... المائدة ٧٨ – ٨١

– ٧ –

وتوجيه الخطاب الى يهود يثرب بتعبير « بني اسرائيل » بهذا الاطلاق الشمول مع هذه الصلة اللاحمة التي يجعلها القرآن بين القدماء والمعاصرين منهم يسوغ الجزم بان اليهود الذين كانوا في الحجاز هم طارؤن ، وانهم اسرائيليون وانهم ليسوا قبائل عربية اعتنقت اليهودية ديناً كما ذهب اليه بعض الباحثين المستشرقين ، بل وليس في الحجاز قبائل عربية يهودية الدين ؛ وانه اذا كان هناك عرب قد تهودوا فانهم لم يكونوا جماعة قبيلية محسوسة ، وليسوا الا أفرادا (١)

ويستلهم من فحوى الآيات التي نقلناها وغيرها ان اليهود في المدينة كانوا متكتلين وذوي مركز واثر وكيان محسوس في المجتمع العربي الذي وجدوا فيه ثقافياً ودينياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً وحربياً .

فاولاً انهم نشروا عن انفسهم على ما يظهر علماً واسعاً في الاديان والشرائع وأخبار الأمم وسنن الكون ، والدين السماوي الذي يدينون به والكتاب السماوي الذي بين ايديهم وكانوا يزهون بذلك على العرب ويفخرون ويستفتحون ، ويظهرون غروراً وخيلاء بذلك كله ؛ ويزعمون انهم أولياء الله واحباءه وانهم أصحاب

---

(١) من أسباب هذا الظن اسماء يهودية عربية وتسمية قبائل اليهود بتسمية عربية على ما يتبادر : مثل بني النضير وبني قريظة الخ ومثل رفاعة ووهب وجبل ونعمان وكعب وعبد الله . وواضح ان هذا ليس مما يقوم سنداً ازاء الدلالة القرآنية الصريحة . على ان الذين تسموا باسماء عربية صرفة احتفظوا باسماء آبائهم العبرانية مثل : عبد الله بن صوريا وثعلبة بن شعيا ورفاعة بن زيد بن التابوت ونعمان ابن آصا الخ (أقرأ بن هشام ج ٢ ص ١٤٠ و ١٤٢ و ١٤٩ و ١٥١ و ١٥٢ و١٥٧ و ١٦٠ و ١٦١ و ١٦٣ مثلاً)

الخطوة لديه والتقدم عنده كما يتدوا من آيات البقرة ٧٦ و ٢١١ ومن الآيات التالية

١ — فويل للذين يكتبون الكتاب بايديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون . وقالوا لن تمسنا النار الا اياماً معدودة قل أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده ام تقولون على الله ما لا تعلمون ... البقرة ٧٩ — ٨٠

٢ — ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ... البقرة ٨٩

٣ — واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما انزل علينا ويكفرون بما وراءه ... البقرة ٩١

٤ — وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هوداً او نصارى (١) . = ١١٠

٥ — وقالوا كونوا هوداً اونصارى تهتدوا (١) ... = ١٣٥

٦ — ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم (١) ... البقرة ١٢٠

٧ — وان منهم لفريقاً يلوون السنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ... آل عمران ٧٨

٨ — لاتحسبن الذين يفرحون بما اوتوا ويحبون ان يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب اليم ... آل عمران ١٨٨

٩ — الم تر الى الذين يزكون انفسهم بل الله يزكي من يشاء .. النساء ٤٩

١٠ — وقالت اليهود والنصارى نحن ابناء الله واحباؤه ... المائدة ١٨

١١ — قل يا ايها الذين هادوا إن زعمتم انكم اولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين ... الجمعة ٦

ولعلنا لانجوز اذا قلنا ان هذا الذهو والادعاء وتزكية النفس قد اثرت تأثراً

---

(١) ان سياق الآيات يدل على ان المقصودين المباشرين هم اليهود وان ذكر النصارى جاء استطراداً

غير يسير في العرب وفي محيط اوسع من محيط المدينة شمل في ماشمل مكة ايضاً ، ولعل في الآيات التي نقلناها في البحث السابق في صدد اهل الكتاب والجالية الاجنبية في مكة والتي تضمنت استشهاد اهل الكتاب ووصفهم بأهل العلم والذكر ، والتي ذكر في بعضها علماء بنى اسرائيل وشاهد من بني اسرائيل على التخصيص دليلاً او قرينة على هذا ؛ حيث يتبادر ان من حكمة هذا الاستشهاد والوصف ما انبثق في نفوس العرب من ثقة في ماعند الكتابيين بوجه عام واليهود بوجه خاص من علم ومعرفة واطلاع .

ويظهر من بعض الآيات ان منهم من كان معروفاً بالرسوخ في العلم كما تلهمه آية آل عمران ١٨٨ وكما تذكره بصراحة الآية التالية :

لكن الراسخون في العلم منهم ... النساء ١٦٢

—٨—

وثانياً انهم كان لهم كيان طائفي وديني وكان لهم معابد ومدارس واحبار وربانيون ، وكان لأحبارهم وربانيهم اثر كبير فيهم كما كانوا هم قضاتهم ايضاً وان احبارهم وربانيهم كانوا لايقومون بواجباتهم في منع العامة عن ارتكاب الآثام والمنكرات ، بل ومنهم من كان يتخذ منصبه الديني وسيلة الى المال واكتناز الذهب والفضة كما تلهمه الآيات التالية :

١ — ماكان لبشر ان يؤتيه الله الكتاب والحكمة والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ... آل عمران ٧٩

٢ — انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونورٌ يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ... المائدة ٤٤

٣ — وترى كثيراً منهم يسارعون في الأثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ماكانوا يعملون . لولا ينهاهم الربانيون والاحبار عن قولهم الاثم وأكلهم السحت لبئس ماكانوا يصنعون ... المائدة ٦٢ — ٦٣

٤ = ياايها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم ... التوبة ٣٤

وثالثاً انهم اندمجوا في حياة العرب الاجتماعية فصنفوا أنفسهم قبائل وبطوناً على نمط العرب ودخلت قبائلهم وبطونهم في المحالفات مع بطون الأوس والخزرج، وكان كل فريق يتضامن مع حليفه في المسؤليات القبلية المشتركة بما فيها النصرة في القتال . وقد ظلت هذه المحالفات والمسؤليات نافذة الى مابعد الهجرة النبوية (١) ، بل الى نهاية التنكيل بهم . وهذا ماتلهمه الآيات التالية:

واذ اخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون انفسكم من دياركم ثم اقررتم وانتم تشهدون . ثم انتم هؤلاء تقتلون انفسكم وتخرجون فريقاً منكم من دیارهم تظاهرون عليهم بالأثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم أخراجهم افتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزيٌ في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى اشد العذاب .

البقرة ٨٤ — ٨٥

حيث تذكر اليهود منددة بمخالفاتهم لشرائعهم في سبيل منافعهم الخاصة ، وتمسكهم بما يتفق مع اغراضهم واهوائهم ونبذهم منها مالا يتفق مع ذلك ؛ وقد ذهب جمهور المفسرين الى ان هذه الآيات هي في صدد ما كان بين بطونهم وبين

---

(١) في سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٩٥ — ٩٩ صيغة العهد الذي كتبه النبي (ص) عقب استقراره في المدينة . وقد الحق في هذا العهد كل بطن من اليهود بالبطن العربي الذي كان حليفه قبل الهجرة وسمى اليهود باسماء البطون العربية فنقول مثلاً : وان اليهود يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ، وان يهود بني عوف امة مع المؤمنين ، وان ليهود بني النجار مالليهود بني عوف الخ حتى سميت بطون الاوس والخزرج جميعها . وقد كان النبي (ص) يطلب من اليهود حصتهم في دية القتلى حسبما كانت تقضي به تقاليد الحلف العربي الاجتماعي . اقرأ ايضاً ابن هشام ج ٢ ص ١٥٥

بطون الاوس والخزرج من محالفات كانت تقضي على بعضهم قتال بعض آخر واسرهم وتقاضى الفداء عنهم تمشياً مع تقاليد العرب في عصبيتهم الاجتماعية .

وفي سورة المائدة والحشر والنساء آيات بسبيل ذلك :

١ — بشر المنافقين بان لهم عذاباً اليما . الذين يتخذون الكافرين اولياء من دون المؤمنين . النساء ١٣٨ — ١٣٩

٢ — فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة . المائدة ٥٢

٣ — الم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من اهل الكتاب لئن أُخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم احداً ابدا وإن قوتلتم لننصرنكم الحشر ١١

حيث كان المنافقون يحتجون بما بينهم وبين اليهود من مواثيق حلفية للاستمرار في التآمر معهم ضد النبي (ص) والمسلمين.

ويظهر ان هذه الصلات الحلفية كانت شديدة راسخة بينهم وبين الاوس والخزرج مخلصيهم ومنافقيهم معاً بحيث اقتضت الحكمة تكرار الامر بعدم الاستمرار في موالاتهم والتنبيه على ما بدا منهم من نقض وغدر ومايضمرونه لهم من بغضاء وسوء نية كما ترى في الآيات التالية :

١ — اوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم . البقرة ١٠٠

٢ — ودّ كثير من اهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفاراً حسداً من عند انفسهم (١) البقرة ١٠٩

٣ — ودّت طائفة من اهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون الا انفسهم وما يشعرون (١) آل عمران ٦٩

٤ — ياايها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتّم قد بدت البغضاء من افواههم وما تخفي صدورهم اكبر قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون . ها انتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن

---

(١) السياق يلهم ان المقصودين المباشرين هم اليهود .

الله عليم بذات الصدور . إن تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط (١)
آل عمران ١١٨ — ١٢٠

(٥) يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء بعضهم اولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ان الله لا يهدي القوم الظالمين (٢) المائدة ٥١

٦ — ألم تر الى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون . (٣) المجادلة ١٥

ويلفت النظر خاصة الى ما تلهمه آية آل عمران ١١٨ مما كان من توجه ومحبة لليهود من ناحية العرب كأثر لشدة التواثق والتواصل والاندماج .

على ان هذا الاندماج في الحياة العربية وهذا الرسوخ في التواثق والتواصل لم يكن صادقاً ، وانما اتخذه اليهود وسيلة للتمكن والتأثير والدفاع والبقاء ليس غير كما تلهمه آية آل عمران ١١٩ والآيات التالية :

١ — ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم . (٤) آل عمران ٧٣

٢ — ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا مادمت عليه قائماً ذلك بانهم قالوا ليس علينا في الاميين سبيل (٥) آل عمران ٧٥

٣ — ام لهم نصيب من الملك فاذاً لا يؤتون الناس نقيراً . ام يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله النساء ٥٣ — ٥٤

---

(١) السياق اولا وتعبير « من دونكم » ثانيا يلهمان ان المقصودين هم اليهود .

(٢) السياق يلهم ان اليهود هم المقصودون المباشرون .

(٣) السياق يلهم ان المقصود هم اليهود والآية تندد بالمنافقين الذين يستمرون في موالاة اليهود . (٤) هذا قول اليهود لبعضهم .

(٥) السياق في اليهود وقد كانوا يقررون عن انفسهم انهم شعب الله المختار وان مادونهم من الامم أمم ثانوية ليس عليهم اي تبعة في ما يصدر منهم نحوها ويبيحون لانفسهم كل شيء معها . وكلمة الاميين في الاصل يطلقها اليهود على الأمم الاخرى وفي الحجاز اطلقوها على العرب ونعني غير الكتابيين .

ورابعاً انهم وسعوا نطاق صلاتهم السياسية وتطابقهم في العصبية الاجتماعية العربية الى خارج محيط المدينة ايضاً . فقد احتوت آية في سورة النساء اشارة الى موقف وحكاية لقول لهم . قال جمهور المفسرين والرواة انه كان من وفد يهودي ذهب الى مكة لعقد حلف مع زعمائها ضد النبي (ص) والمسلمين وكان من نتيجة ذلك ان ظاهر اليهود احزاب العرب التي قدمت تغزو المدينة في السنة الهجرية الخامسة مما أشارت اليه كذلك آية من سورة الاحزاب :

١ — ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء اهدى من الذين آمنوا سبيلا . النساء ٥١

٢ — وانزل الذين ظاهروهم من اهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب . الاحزاب ٢٦

والارجح ان الوفد اليهودي لم يكن ليذهب في سبيل مهمة خطرة مثل المهمة التي ذهب اليها لو لم يكن بين اليهود وقريش صلات ود وسياسة تمتد الى ما قبل الهجرة بل والى ماقبل البعثة . وفي روايات السيرة انه كان بين يهود خيبر وقبائل غطفان وذبيان مواثيق حلفية قديمة . وهذا مما يستأنس به بسبيل ما نحن في صدده .

ويلفت النظر الى الاسلوب السياسي اليهودي الذي اصطنعه اليهود في سبيل الوصول الى تحقيق غرضه مما أشارت اليه آية النساء ؛ حيث سألهم مشركوا قريش رأيهم في ماهم عليه وما محمد (ص) عليه فقالوا لهم انهم اهدى سبيلاً منه ؛ وحيث طلب منهم زعماء المشركين ان يقسموا على الوفاء بالحلف عند اصنامهم في فناء الكعبة وان يبتهلوا عندها معهم لينصروهم في ما اعتزموا عليه ففعلوا ! وهكذا برزت لهم الغاية وسيلة من ابشع الوسائل مهما كان فيها من كفر صريح وعار خالد .

وخامساً : انهم قد ابتنوا القلاع والقرى المحصنة والحصون ، وكانت من القوة والمناعة بحيث انهم كانوا يعتقدون انها ما نعتهم وبحيث كان العرب يعتقدون هذا ايضاً ؛ وقد نقلنا الآيات التي تضمنت ذلك في بحث وصف يثرب وخطورتها . ومما لا ريب فيه ان هذه الحصون والقلاع والقرى مما كان وسيلة الى توطيد الهيبة

والقوة اليهودية في نفوس العرب ، وبالتالي من وسائل أو دلائل ما كان لهم من هيبة وقوة ، وقد تدلنا في ذات الوقت :

١ — على انهم كانوا في سكناهم منعزلين عن العرب ، يعيشون مع بعضهم عيشة التكتل والأحياء الخاصة على ماجرت واستمرت عليه عادتهم منذ القديم .

٢ — على انهم لم يكونوا يطمئنون كل الطمأنينة في المجتمع العربي ، فعمدوا الى اتخاذ القرى المحصنة والقلاع والحصون ليقووا فيها على الحصار والدفاع في الأزمات .

٣ — على ان احداثاً خطيرة كانت تقع من حين لآخر بين اليهود والعرب اضطرتهم تجاربهم فيها الى اتخاذ هذه الحصون والقلاع والقرى . ونرجح ان هذه الاحداث هي التي اضطرتهم كذلك الى عقد المحالفات مع العرب والاندماج الظاهري في تقاليدهم العصبية الاجتماعية والقبيلية .

— ١٠ —

وسادساً : ويمكن ان يستدل من الآيات القرآنية على ان اليهود كانوا جاليات كبيرة العدد متعددة الفروع ومنتشرة في اماكن كثيرة من منطقة يثرب والطريق المؤدية الى الشام منها . فهناك آيات تذكر ما افاء الله على رسوله من قراهم ؛ واستعمال صيغة الجمع يلهم الكثرة كما هو المتبادر :

« ما افاء الله على رسوله من اهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ... الحشر ٧

وفي آيات الاحزاب التي ذكرت مظاهرة اليهود المشركين والتنكيل بهم ذكر ان الله اورث المسلمين أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم يطؤوها من اراضيهم ؛ والفقرة الاخيرة هي في صدد ما قلناه من انتشارهم كما هو المتبادر :

وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً. وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وارضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديراً... الأحزاب ٢٦ — ٢٧

وفي سورة الفتح اشارة غامضة فسرتها الروايات المتواترة التي بلغت مبلغ اليقين

بانها عنت خيبر في الدرجة الاولى وما فتح على المسلمين بعدها مباشرة من قرى وادي القرى وفدك وتيماء اليهودية ، بما هو كذلك بسبيل توكيد ما نحن في صدده من كثرة وانتشار الجاليات الاسرائيلية :

١ — سيقول المخلفون اذا انطلقتم الى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم ...

الفتح ١٥

٢ — وأثابهم فتحاً قريباً (١) . ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيما. وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه (١) وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيماً . وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها (٢) وكان الله على كل شيء قديراً ..

الفتح ١٨ — ٢١

وكتل الجالية اليهودية الكبرى كانت على مايبدو في منطقة مدينة يثرب بالذات ، حيث كان فيها ثلاث قبائل ربما بلغ عددها بضعة آلاف ، وهي قبائل بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة ، وقد اجلا النبي (ص) الاوليين ونكل في الثالثة تنكيلا شديداً حسبما اقتضته وبررته الظروف . والقرآن لم يذكر هذه القبائل باسمائها ؛ ولكنه احتوى اشارات الى ثلاث حوادث تنكيلية ذكرت الروايات المتواترة التي بلغت مبلغ اليقين معها اسماء القبائل الثلاث .

وآيات الحشر ٢ — ٧ التي نقلناها سابقاً تضمنت الاشارة الى حادثة بني النضير . وآيات الاحزاب ٢٦ — ٢٧ التي نقلناها سابقاً ايضاً تضمنت الاشارة الى حادثة بني قريظة . اما حادثة بني قينقاع فقد اشير اليها في الآيات التالية :

١ — قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي

---

(١) هو صلح الحديبية

(٢) من المحتمل كثيراً ان يكون قصد بها القرى اليهودية الثانوية التي استسلمت بدون حرب نتيجة لانتصار المسلمين الحربي في خيبر . وفدك وتيماء قد استسلمتا بدون حرب على ما ذكرته روايات السيرة .

العين والله يؤيد بنصره من يشاء ان في ذلك لعبرة لاولي الابصار . . .
آل عمران ١٢ (١) ١٣

٢ — ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون . فاما تثقفنهم في الحرب فشرّد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون . وأما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين (١) الانفال ٥٥ — ٥٨

٣ — كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال امرهم ولهم عذاب اليم . . .
الحشر ١٥ (٢)

— ١١ —

وسابعاً والآيات التي نقلناها وما احتوته من وصف لما كان لهم من اراض واموال وقرى وما وصفت به الغنائم التي غنمها المسلمون بالكثرة تدل كما هو واضح على ما كان لليهود من ثروة واسعة . ونشاط اقتصادي كبير كانت الزراعة من اهم مجالاته على ما تلهمه الآيات نفسها ، واوضح ان هذا وذاك قد جعل لهم اثراً خطيراً في حياة العرب الاقتصادية .

وثامناً وقد كانوا يتعاطون الربا . وهو العمل الذي اختصوا به تقريباً في اكثر مهاجرهم ، وكان لهم من طبيعة منطقة يثرب الزراعية فرصة الى ذلك ، لان الزراع يحتاجون عادة الى استلاف المال الى حين الحصاد والقطاف . ومما لا ريب فيه ان هذا مما كان يجعل لليهود تأثيراً قوياً في حياة العرب الاقتصادية ايضاً . اما الاشارة القرآنية الى هذا فهي في آيات في سورة النساء نزلت في التنديد بمواقفهم

(١) في تفسير الخازن وغيره في صدد تفسير آيات آل عمران والانفال وفي ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٤ ان المعنيين بالذين كفروا هم بنوا قينقاع وان الله أمر النبي (ص) بانذارهم بما كان من عاقبة مشركي مكة في بدر حيث اشير اليها في آية آل عمران الثانية .

(٢) هذه الآية جاءت تعقيبية على حادث تنكيل بني النضير وقد كان اجلاء بني قينقاع قبلهم .

الجحودية والحجاجية واخلاقهم :

فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً . وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم اموال الناس بالباطل واعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً ... ١٦٠ — ١٦١

ولعل جملة « اكلهم اموال الناس بالباطل » تلهم انهم كانوا يستغلون حاجة اهل يثرب استغلالا أثيماً ، ويرهقونهم بالربا ومضاعفته اضعافاً كثيرة ، ولعلهم كانوا يستعملون وسائل اخرى في سبيل ارهاقهم والاستيلاء على غلاتهم ومنتوجاتهم.

وليس في الآيات القرآنية مايمكن الاستدلال به على اشتغالهم بالاعمال الصناعية والتجارية . غير ان هذا لا يعني النفي بطبيعة الحال . والمرجح انهم او انه كان منهم فئات يشتغلون بهذه الاعمال . ولقد ذكرت روايات السيرة في سياق اجلاء بني قينقاع انه كان لهم سوق يعرف باسمهم ، وانه كان في هذا السوق صاغة منهم . والتجارة عمل من اعمال اليهود الرئيسية ، ولا يعقل ان يكونوا في غفلة عنها ، وفي البيئة مجال واسع لها ، ومن اهلها من كان يبدي فيه نشاطاً كبيراً .

وتاسعاً ان فحوى الآيات ودلالاتها وملهماتها بصورة عامة تلهم ان هجرة الاسرائيليين الى الحجاز لم تكن حديثة عهد ، بل وربما كانت ترجع الى بضعة اجيال او قرون ، وانهم كانوا يجيدون العربية خطابة وفهماً بالاضافة الى مالا يتحصل شكا من احتفاظهم او احتفاظ علمائهم واحبارهم وربانيهم على الاقل باللغة العبرانية التي كانت لغة التوراة والكتب اليهودية الدينية الاخرى (١)

— ١٢ —

وكما امدتنا الآيات القرآنية المدنية بدلالات وملهمات كثيرة عن احوال الجاليات اليهودية الثقافية والدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والحربية والقتالية

(١) في سيرة ابن هشام اسماء عدد من شعراء اليهود وقصائدهم . انظر مثلا الجزء الثاني ص ٣٣٧ و ٣٤٤ والجزء الثالث ص ٥٥ و ١٧٤ وفي كتب الحديث حديث عن زيد بن ثابت ان النبي (ص) امره بتعلم العبرانية من اليهود حتى يستطيع ان يحاجهم ...

والعددية ، فان فيها ما يعدنا كذلك بدلالات وملهات عما كانت عليهم اخلاقهم ايضاً .

١) فمن الآيات ما يشير الى ما كانوا عليه من أثرة وانانية وشح ورغبة في ان يكون كل شيء لهم وحسد وجشع الى ما في ايدي الغير كما جاء في آيات البقرة ١٠٩ والنساء ٥٣ — ٥٤ التي نقلناها ؛ ومن آيات سورة آل عمران التالية :

ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خير لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السماوات والارض والله بما تعملون خبير . لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن اغنياء سنكتب ماقالوا وقتلهم الانبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق ... ١٨٠ — ١٨١

٢) ومن الآيات ما يشير الى خلق النفاق والدس والقاء الشكوك في نفوس الآخرين قصد البلبلة والتحكم كما تلهمه آيات البقرة ٧٦ وآل عمران ٧٢ وكما تلهمه الآيات التالية :

١ — قل ياأهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وانتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون . يا ايها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين اوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين . وكيف تكفرون وانتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم . يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وانتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ...
آل عمران ٩٩ — ١٠٣

وقد ذكر المفسرون والرواة ان الآيات او بعضها نزل بمناسبة دس دسه اليهود بين بعض الاوس والخزرج جر الى فتنة كادت تتسع اتساعاً عظيما . وعلى كل حال فالايات في اسلوبها ومضامينها تدل على سياق دس وصد وبلبلة وفتنة من اليهود بين المسلمين .

ومن هذا الباب آية في سورة المائدة انطوت على موقف تشكيك ودس يهودي

في قضية من القضايا المرفوعة الى النبي (ص) حرفوا الكلم فيه عن مواضعه وتآمروا فيه مع المنافقين :

يا أيها الرسول لايحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هـذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ... ٤١

٣) ومن الآيات ما يشير الى خلق تبرير كل وسيلة في سبيل الغـاية والمنفعة الخاصة مما احتوته آية النساء ٥١ وآيات النساء التالية :

ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون ان تضلوا السبيل . والله اعلم باعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً . من الذين هـادوا يحرفون الكلم عن مواضعه . ٤٤ — ٤٦

٤) ومن الآيات ما يشير الى خلق استحلال ما في ايـدي الغير وعدم اعتبار انفسهم مسؤولين عن الامانة لهم والوفاء بعهـدهم كما تلهمه آيت البقرة ١٠٠ وآل عمران ٧٥ التي نقلناها سابقاً .

٥) ومن الآيات ما يشير الى خلق عدم مبادلة الغير ما يتمتعونه منهم من ود وصداقة وعدم الاركان للغير او تبصيره في امر ما كما تلهمه آيات آل عمران ٧٣ و ١١٩ والبقرة ٧٦ التي نقلناها سابقاً .

٦) ومن الآيات ما يشير الى خلق اللجاج والحجاج والمكابرة . وهي كثـيرة جداً وتجعل اللحمة بين اليهود المعاصرين واليهود القدماء متصلة في هذا الخلق . وقد اوردنا بعضاً منها في ما سبق ونورد بعضاً آخر في ما يلي :

١ ـــ قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا اعمالنا ولكم اعمالكم ونحن له مخلصون (١) البقرة ١٣٩

٢ ـــ سيقول السفهاء من الناس ماولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها (١) = ١٤٢

٣ ـــ وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل

---

(١) السياق في مواقف اليهود واحوالهم واخلاقهم .

عما يعملون . ولئن اتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما انت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت اهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك اذاً لمن الظالمين . الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون (١) البقرة ١٤٤ — ١٤٦

— ١٣ —

٧) ويظهر من فحوى بعض الآيات انهم كانوا يتعاطون السحر . فقد ذكرت احدى آيات البقرة في سياق التنديد باليهود للجاجهم ونقضهم للعهد ونبذهم كتاب الله وعدم تصديقهم برسوله انهم بدلا من اتباع الحق اتبعوا ما تتلوا الشياطين من اعمال السحر في حين انهم يعرفون ما في هذا من خروج عن الدين وابتعاد عن جادة الرشد والهدى . ويظهر كذلك من الآية انهم كانوا يزعمون ان سليمان (ص) كان هو ايضاً يتعاطى السحر الذي سخر به الشياطين ، وان علمهم فيه هو من ذلك العلم :

ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين اوتوا الكتاب (١) كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من احد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من احد الا بأذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به انفسهم لو كانوا يعلمون (٢)

البقرة ١٠١ — ١٠٢

---

(١) السياق في مواقف اليهود واحوالهم واخلاقهم .

(٢) في تفسير الطبري ج ١ ص ٣٤٧ اسم ساحر يهودي في المدينة هو لبيد ابن الاعصم . الفقرة الاخيرة من الآية الثانية ترجع الكلام الى اليهود الذين بدء بالكلام عنهم في اولها .

— ١٤ —

هذا ، وان آية آل عمران :

ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلاّ بحبل من الله وحبل من الناس وباؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ... ١١٢

وآية الاعراف المدنية :

واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ... ١٦٧

لتلهان انه مما كان مشهوداً وملموساً بوجه عام تسربل اليهود بسربال المسكنة والذلة ، وقد تلهان أنهم كانوا كذلك في الحجاز على الرغم مما كانوا عليه من ثروة وعدد وكيد ومظاهر قوة كما هو شأنهم في غير الحجاز .

كذلك فان آية الاعراف :

وقطعناهم في الارض امماً ... ١٦٨

لتلهم ان شتات اليهود في كل ناحية من انحاء الارض حالة مشهودة ملموسة لدى غيرهم ، وان وجودهم في الحجاز كان مفهوماً انه يمت الى هذه الحالة .

— ١٥ —

وان لمن الطبيعي ان يكون لليهود وهذا مركزهم وهذه حالتهم ومشاركاتهم في حياة العرب وتقاليدهم وهذه اخلاقهم وعاداتهم ومعايشهم اثر غير يسير في جيرانهم العرب اهل المدينة خاصة ، وأهل الحجاز عامة . فنحن لا نشك في ان كثيراً مما كان يبدو ان العرب قد عرفوه وجادلوا فيه ، وتطور في اذهانهم وعقائدهم وعاداتهم من أخبار الانبياء والملائكة والشياطين وخلقة العالم وقصص الامم الغابرة والشرائع السماوية ، وكذلك مما كانوا عليه من احوال معاشية وصناعية وتجارية وزراعية بل وبعض الطقوس الدينية قد تسرب منهم الى العرب في هذه الحقبة الطويلة التي اقاموها بين ظهرانيهم (١) وقد مرت الاشارة الى ما هو محتمل ان يكون العرب

(١) في تفسير الخازن ج ١ ص ١٥٣ عن ابن عباس ان اهل المدينة كانوا يقتدون بكثير من افعال اليهود لانهم يرونهم اهل كتاب ويرون لهم فضلا عليهم .

قد اقتبسوه منهم من الفنون الزراعية واتخاذ الحصون والآكام ؛ وستأتي اشارات اخرى في الفصول التالية الى ما تسرب الى العرب واقتبسوه منهم في النواحي الاخرى . وقد افردنا بحثاً خاصاً باليهودية في باب الاديان والعقائد تكملة للصورة القرآنية عن اليهودية واليهود .

النصارى والاجانب الاخرون في المدينة

— ١٦ —

ونبحث الان في ما اذا كان في المدينة جالية اجنبية غير الاسرائيليين قبل البعثة ، فنقول انه ليس في القرآن اشارة صريحة الى ذلك كمثل التي في آية النحل بالنسبة الى مكة غير انه يوجد فيه آيات مدنية كثيرة ، ورد فيها ذكر النصارى ؛ ووجه اليهم الخطاب ، وحكيت لهم مواقف مستحبة من الدعوة النبوية والقرآن ونددت بعقائدهم في المسيح (ص) وجودلوا فيها ، وقرع بعضهم على مواقف مكابرة وجحود وعدوان وصدت منهم ، وأمر بعدم موالاتهم ، كما ترى في الآيات التالية :

١ — وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هوداً او نصارى. البقرة ١١١

٢ — وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شي ... البقرة ١١٣

٣ — ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم . « ١٢٠

٤ — وقالوا كونوا هوداً او نصارى تهتدوا . « ١٣٥

٥ — إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون. الحق من ربك فلا تكن من الممترين . فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين . إن هذا لهو القصص الحق وما من إله الا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم .. آل عمران ٥٩ — ٦٢

٦ — يا اهل الكتاب لاتغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله

ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الارض وكفى بالله وكيلا . لن يستنكف المسيح ان يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ... النساء ١٧١ — ١٧٢

٧ — وقالت اليهود والنصارى نحن ابناء الله واحباؤه ... المائدة ١٨

٨ — لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من انصار . لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله الا إله واحد وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم . أفلا يتوبون الى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ، ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وامه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون . قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم ... المائدة ٧٢ — ٧٦

٩ — يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء بعضهم أولياء بعض . المائدة ٥١

١٠ — لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا ولتجدن اقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وانهم لا يستكبرون ، واذا سمعوا ما انزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ... المائدة ٨٢-٨٣

١١ — واذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن اقول ما ليس لي بحق .. المائدة ١١٦

١٢ — قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . وقالت اليهود عزير «ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بافواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون. اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا الا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله الا هو

سبحانه عما يشركون . يريدون أن يطفئوا نور الله بافواههم ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الاحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ...

التوبة ٢٩ ـ ٣٤

١٣ ـ ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الانجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم اجرهم وكثير منهم فاسقون ...

الحديد ٢٧

وهذا بالاضافة الى آيات وجهت فيها الدعوة الى اهل الكتاب مطلقة مما يرجح ان يكون خوطب بها النصارى واليهود معاً مثل الآيات التالية :

١ ـ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير ...

المائدة ١٥

٢ ـ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير ...

المائدة ١٩

بل لقد تخلل هاتين الآيتين تنديد بعقيدة ألوهية المسيح (ص) مما يسوغ القول انهما موجهتان في الدرجة الاولى الى النصارى :

لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً ان اراد ان يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الارض جميعاً ...

المائدة ١٧

ـ ١٧ ـ

واذا كان ذكر النصارى في بعض هذه الآيات قد جاء استطراداً او تعبيراً عن لسان حال على ما ضمناه في بحث اليهود فان اكثرها يحتوي دلالات قوية بل وصريحة على ان النبي (ص) قد التقى في المدينة بطوائف مختلفة من النصارى في اوقات متفاوتة ، ودعاهم ، ومنهم من بدا منه ما وصفته آيات المائدة ٨٢ ـ ٨٣ من مشهد تصديقي رائع ، ومنهم من جادل وكابر .

واذا كان من المرويات ان وفوداً نصرانية قد قدمت الى المدينة من نجران اليمن ومن الحبشة ومن الشام واتصلت بالنبي (ص) ومنها من تناظر معه وبقي على دينه ومنهم من آمن فان ذكر اقوال ومواقف وعقائد النصارى في الفصول التي يرجح انها نزلت في اوائل العهد المدني ، وقبل ان يستفحل امر النبي (ص) ويستقر ليسوغ القول أنه كان في المدينة طائفة مستقرة من النصارى بقطع النظر عن قلة عددها وكثرته .

واذا كان من المحتمل ان يكون من هؤلاء من كان عربا متنصرين من أهل المدينة على ما كان الامر في مكة او عرباً من غير اهلها قدجاؤا واقاموا فيها لظروف اقتصادية وغير اقتصادية فليس ما يمنع ان يكون منهم من هو اجنبي الجنس ايضاً من روم وسريان واقباط وعجم الخ .. واذا كانت ظروف الشام قد حملت بعض النصارى غير العرب على النزوح الى مكة والاقامة فيها ، واذا كان تجار مكة قد استطاعوا جلب بعضهم بالشراء لحاجاتهم الخاصة اوالاقتصادية فالمتبادر ان لايكون هذا قاصراً على مكة ، لا سيما والمدينة أقرب الى الشام من مكة وأقليمها أكثر احتمالا على النازحين من الشام من اقليم مكة ، وقد كانت هذه الميزات مما جعل الاسرائيليين النازحين عن الشام يفضلون الاقامة فيها (١)

— ١٨ —

وآيات التوبة ٢٩ — ٣٤ نزلت على مايكاد يكون يقينياً بين يدي غزوة تبوك التي قادها النبي (ص) ضد نصارى مشارف الشام بسبب ما بدا منهم من عدوان . فاذا استثنيناها لا نجد في الآيات التي نقلناها ما يدل على ان النصارى كانوا في المدينة متكتلين او ذوي اثر محسوس في حياة العرب الاقتصادية والاجتماعية . كما لا نجد شيئاً من صور المكر والدس والتآمر والحسد والبغي الذي احتوته الآيات التي جاءت في حق اليهود ، بل نجد وصفاً شاملا للنصارى بأنهم كانوا اقرب الناس مودة للذين آمنوا وانهم كانوا لا يستكبرون وان في قلوبهم رأفة ورحمة مما يدل بالاضافة الى

(١) في اسد الغابة ج ١ ص ٤١ ذكر نجار رومي اسمه باقوم كان مقيماً في المدينة وهو الذي صنع منبر النبي (ص) ونرجح ان له امثالا عديدين .

دلالته ايضاً على عدم كثرتهم وتكتلهم ؛ وعلى ضعف أثرهم على انهم كانوا بوجه الاجمال ذوي اخلاق دمثة وعواطف رقيقة ، راغبين عن اللدد والعنف في الخصومة الخ . . مما قررنا مثله لنصارى مكة في بحث سابق استلهاماً من الآيات المكية .

ولا يعني هذا انه لم يكن للنصرانية أثر في عقائد العرب واديانهم وافكارهم ومعارفهم ، فأن هذا الأثر غير خفي في كل ذلك مما سنشير اليه في الفصول التالية . ولقد عقدنا في باب العقائد والاديان بحثاً للنصرانية والنصارى ايضاً ، سنلم فيه بهذا الاثر كذلك ونكمل الصورة القرآنية عنها .